

صفحات

فى تاريخ مصر

تأليف

توفيق حامد المرعشلى

دكتور فى الآداب

مدرس التاريخ [illegible]

بمدرسة عابدين [illegible]

الطبعة الاولى

سنة ١٩٢٨

فهرس

لكتاب صفحات فى تاريخ مصر

الكتاب الاول

مصر فى العصرين القديم والوسيط

عصور الفراعنة واليونان والبطالسة والرومان ومصر الاسلامية الى انتهاء دولة المماليك سنة ١٥١٧ م

الكتاب الثاني

مصر في العصور الحديثة

من القرن السادس عشر الى القرن الثامن عشر

مصر تحت حكم الدولة العثمانية الى خروج الحملة الفرنسية

الكتاب الثالث

مصر الحديثة

عصور محمد على وخلفائه وعصر الخديوية ثم الاحتلال والحماية فالمملكة المصرية لغاية ابريل سنة ١٩٢٨

انظر الفهرس التفصيلى في آخر الكتاب

مقدمة

هذه صفحات فى تاريخ مصر من عصر الفراعنة الى يومنا هذا . وُضِعت وِفق منهج السنة الثانية بمدارس المعلمين الاولية الذى يشمل تاريخ مصر من عصور المماليك الى اليوم ولذلك أسهبت فيه بعض الاسهاب . أما العصور التى تقدمته من عصر الفراعنة الى آخر أيام الدولة الايوبية فقد ألممت بلبابه حتى تتسق سلسلة تاريخ مصر

وإذ يتصل تاريخ بلادنا فى أكثر معالمه بدول الشرق والغرب قديماً وحديثا ، فقد أتيت على نبذ صغيرة عن اليونان والرومان ثم العرب والدول الاسلامية والاتراك . كما مهدت للحملة الفرنسية وتاريخ مصر الحديثة بالاشارة الى حالة اوروبا من النهضة الى الثورة .

وانفقت عناية غير قليلة فى دراسة الماضى القريب ، من آخر عصر اسماعيل فالثورة العرابية وعصر الاحتلال ثم الحركة الوطنية وعصر الحماية وثورة الاستقلال . لاسيما

من الحركة الوطنية الى الآن التى اعتمدت فى تدوينها على
ما رأته العين وحوته الذاكرة وما تركته من أثر . وهى
تعطينا صورة صالحة عن نشوء الرأى العام المصرى وتطوراته
وكيف جاهدت الامة وحرصت كل الحرص على كيانها
ومستقبلها . ولان حياتنا السياسية والاجتماعية والاقتصادية
وما يقع كل يوم من حوادث وتقلبات تحت سمعنا وبصرنا
إنما هى من نتائج هذا الماضى

ولقد توخيت في أسلوبى التلويح بعصور المجد وأيام العز
والاستقلال التى استمتعت بها أجدادنا في الاجيال السالفة ،
مايبعث فى النفوس الروح القومية والشعور بالعزة الوطنية
التى هي بعض أغراض التاريخ

والله أسأل أن يوفقني لما قصدت اليه من خير مصر

المؤلف

هليوبوليس في ٥ مايو سنة ١٩٢٨

الكتاب الاول

مصر فى العصرين القديم والوسيط

الباب الاول

مصر في العصور القديمه

الفصل الأول ــ مصر الفراعنة

سابقت مصر أمم الارض في انشاء الحضارة التي سطعت شمسها فى وادى النيل الخصيب فبلغت من العز والثروة مبلغا كبيرا على مدى ثلاثين قرنا من الزمان قبل الميلاد فى عهد أسر ملوكها الاقوياء .

وما تلك الآثارات العديدة فى صعيد البلاد فى طقارة والجيزه ومنف وطيبه وأسوان واللاهون الا آيات تفصح لك عما كان لمصر وملوكها من عز وسلطان وما كان لديهم من علوم وفنون

قويت مصر الفراعنة فى تلك العصور بملوكها المستقلين فبلغت من البأس ما جعلها تمد سلطانها على ما جاورها من الامم فتمكنت من بسط نفوذها على النوبة وبرقة والشام وامتدت أملاكها الى الفرات .

ومع أن مصر منيت بغزو الهكسوس لها (١٦٧٥ ق م

— ١٥٨٠ ق م) فان المصريين وملوكهم مازالوا يناهضونهم حتى استؤصلت شأفتهم من البلاد فى أيام الاسرة الثامنة عشرة (١٥٨٠ ق م — ١٣٥٠ ق م) وعاد لمصر سؤددها واستقلالها

وقد أوفت مصر في أيام هذه الاسرة على قدر من الحضارة عظيم فما تلك النفائس التى وجدت فى قبر توت عنخ آمون إلا أنصع دليل على حضارة أبهرت العالم الحديث بحق

وما زالت تعلو منزلة مصر المستقلة في تلك العصور حتى بلغت مبلغاً من العظمة وعلو الجاه فى عهد الرعامسة(١) ملوك الاسرة التاسعة عشرة (١٣٥٠ ق م — ١٢٠٥ ق م) ففتحت ماوالاها من الشرق وحاربت الحيثيين

ثم هرمت الدولة فى أيام حكم الاسرات الاخيرة فأصابها الضعف وكانت دول بالمشرق قد نمت وقويت كآشور وبابل (فيما بين النهرين — العراق) والفرس طمعوا فى الاستيلاء عليها فاستولى الآشوريون على مصر مرتين وطردوا منها نهائياً سنة ٦٥٤ ق م — أما الفرس فمازالوا فى القرنين الخامس

---

(١) جمع رمسيس

والرابع قبل الميلاد ينازعون المصريين والمصريون ينازعونهم حتى استولوا على مصر ثلاث مرات وفى الاخيرة خرجوا منها بدخول الاسكندر المقدونى سنة ٣٣٢ ق م

الفصل الثانى — مصر تحت حكم الاسكندر

اليونان : سكن جنوب البلقان قبائل الاغريق منهم اليونان وكانت كل أمة فى مدينتها مستقلة — وقد نشأت عندهم حضارة يرجع عهدها إلى ٨٠٠٠ سنة قبل الميلاد — أما أثينا أشهر بلد فى اليونان فقد أزدهت بالعلم والفلسفة والادب والفن في القرن الخامس قبل الميلاد ثم انتشرت هذه المدنية اليونانية بين الاغريق ثم بين الامم الاخرى وعنهم فيما بعد أخذت أوربا ثم العالم أجمع أصول مدنيتهم .

وقع العداء الشديد بين الفرس والاغريق فى القرن الخامس قبل الميلاد فكان سببا في سلسلة حروب بينهم حتى جرد الفرس جيشا كبيرا وقصدوا بلاد الاغريق للقضاء عليهم والاستيلاء على بلادهم فابلى الاغريق بلاء حسنا في الدفاع عن بلادهم خصوصا أهل اسبارطة الذين كانت

حياتهم التدريب على الحرب والقتال حتى هزمت الفرس أشر الهزائم .

ثم ظهر فيليب فى مقدونيا في القرن الرابع الميلادى الذى تمكن من التغلب على بلاد الاغريق جميعها فصارت مملكة واحدة تحت حكمه .

مصر تحت حكم الاسكندر ٣٣٢ ق م - ٣٢٣ ق م

ثم جاء بعده ابنه الاسكندر الذى أراد أن يأخذ بثأر الاغريق من الفرس فجهز جيشا كبيرا حارب به الفرس فى آسيا الصغرى وهزمهم ثم استولى على الشام وكانت فى أيديهم وبعد ذلك قدم إلى مصر سنة ٣٣٢ ق م فرحبت به أهل البلاد لما كان بينهم وبين الفرس من كراهية — ولم يجد الاسكندر مقاومة من الفرس فى مصر لان حاميتهم كانت قد انسحبت من قبل إلى الشام

أسس الاسكندر مدينة الاسكندرية ثم غادر الديار المصرية قاصدا الشرق لغزو الفرس فى بلادهم وقد أمل أيضا أن ينشىء مملكة كبيرة تجمع بين الشرق والغرب — فظل فى

غزوه حتى وصل بلاد الهند ثم عاد وأقام فى بابل لتنظيم دولته ولكن المنية عاجلته فمات سنة ٣٢٣ ق م

الفصل الثالث

مصر في عصر البطالسة « ٣٢٣ ق م – ٣١ ق م »

لم تدم امبراطورية الاسكندر طويلا . إذ بموته تقسمت بين قواده فكانت مصر من حظ بطليموس الذى لقب بلقب ملك مصر سنة ٣٠٥ ق م وهو مؤسس دولة البطالسة التي بقيت بمصر نحو ثلاثة قرون بلغت فى أثنائها شأوا بعيدا من القوة والثروة ونهضت نهضة كبيرة فى العلوم والآداب .

لم تفقد مصر فى مدتهم سيادتها بوجه عام على ما جاورها من البلاد : شرقا إلى فلسطين والشام وغربا إلى برقة . وانتهت إلى أن كانت من ممالك البحر الابيض التي يخشى بأسها فتملكت فيه الجزر جعلتها قواعدها البحرية حتى تنافس فى ودها رومة وقرطاجنة . أما الثروة فقد نمت فى عهدهم نموا كبيرا حتى صارت مصر أغنى مملكة فى العالم

القديم إذ ذاك ـ أما الاسكندرية عاصمة ملكهم فقد شهدت من البطالسة أعظم ملوك الارض أبهةً وعظمة وصارت الاسكندرية بجامعتها (مدرستها) ومكتبتها الشهيرتين أعظم مركز للعلوم والآداب وأكبر منبع للحكمة والفلسفة فى تلك العصور .

وقد تشبه ملوك البطالسة فى زيهم وعاداتهم بالمصريين وتبعهم الاغريق الذين جاؤا مصر وانتشروا فيها ونشروا مدنية اليونان واختلط الجميع حتى نشأت حضارة مصرية أغريقية في كثير من مظاهرها ولكن دولة البطالسة كانت كغيرها من الدول قد انتابها الضعف والاضمحلال فى آخر أيامها حتى صارت مصر مطمح أنظار رومة — ومازالت الحوادث تتقلب حتي استولى الرومان على مصر سنة ٣١ ق م

الفصل الرابع ـ مصر تحت حكم الرومان :

الرومان : ظهرت روما بين بلاد اللاتين فى ايطاليا بمظهر القوة فى القرن السادس قبل الميلاد وما لبثت أن استظهرت على

ايطاليا كلها فى أوائل القرن الثالث قبل الميلاد ــ وقد انبلج الصبح لرومان لتملك ناصية البر والبحر . فوقع التنافس بينها و بين قرطاجنة (دولة شمالى أفريقية اذ ذاك) صاحبة السيادة البحرية والتجارية فى البحر الابيض المتوسط ــ و بعد سلسلة حروب ظهر فيها القائد العظيم هانيبال بطل قرطاجنة انتهت تلك الحرب بانتصار الرومان واستيلائهم على قرطاجنة واسبانيا فى أول القرن الثانى قبل الميلاد

استمر الرومان فى بسط سيادتهم على المعمور من الارض حول البحر الابيض المتوسط فاستولوا على شبه جزيرة البلقان (أرض الاغريق واليونان وأخلاف الاسكندر) وبعض آسيا الصغرى فى أواسط القرن الثانى قبل الميلاد

ثم واصلوا فتوحاتهم فى الشرق حتى استولوا على أكثر آسيا الصغرى وجميع الشام سنة ٦٣ ق م واعقب ذلك ظهور البطل الرومانى الشهير يوليوس قيصر الذى استولى

على بلاد الغال (فرنسا) ثم على بريطانيا العظمى وذلك فى أواسط القرن الاول قبل الميلاد

وبينما كان الرومان يمدون سلطانهم على تلك البلاد كانت دولة البطالسه قائمة بمصر فكانت روما تخطب ود مصر فى أيام قوة البطالسه ولما بدأ الضعف يتسرب الى دولتهم اراد الرومان استغلال هذا الظرف وما زالت الحوادث تتقاب حتى انتهى الامر باستيلائهم على مصر سنة ٣١ق م وصارت البلاد المصرية جزءاً من الامبراطورية الرومانية العظيمة التى صارت لها السيادة على العالم القديم حول البحر الابيض وظلت تتقدم وتعلو منزلتها وتزهو فى الحضارة والمدنية والعلم والادب والفنون خصوصا عصر أغسطس قيصر (٣٠ ق م — ١٤ م) الذى سمى بالعصر الذهبي للرومان

« مصر في عصر الرومان — ٣١ ق م — ٦٤١ م »

لما دخلت مصر فى حوزة الرومان استغلتها روما استغلالا واسعا فكانت مصدر ثروة أغدقت على روما والرومان المحاصيل الكثيرة

دخلت المسيحية مصر وانتشرت بها فى القرن الاول الميلادى بانتشارها فى بلاد الدولة الرومانية على أيدى تلاميذ السيد المسيح وتسمى نصارى مصر فيما بعد بالاقباط

وقد لاقى المصريون المسيحيون اضطهادا من بعض أباطرة الرومان حتى كان مايسمى بعصر الشهداء سنة ٢٨٤ ميلادية مبدأ التاريخ القبطى بمصر

ثم أصبحت المسيحية دين البلاد كلها لما صارت الدين العام الرسمى للدولة الرومانية سنة ٣٨١ م فاشتركت مصر فى الخلافات المذهبية لما كانت فى رءوس أهلها من علوم ومعارف وفلسفة وحكمة

ولما انقسمت الدولة الرومانية الى شرقية وغربية سنة ٣٩٥ م كانت مصر من حظ القسطنطينية (الدولة الرومانية الشرقية — البيزنطية)

لم تستمر الدولة الرومانية الغربية طويلا فقد سقطت سنة ٤٧٦ م باستيلاء القبائل الجرمانيه (المتبربرة) على بلادها ومنهم قبائل الوندال الذين استولوا على جنوبى اسبانيا وتركوا

اسمهم هناك « الاندلس » ثم أخرجهم منها قبائل القوط الذين ظلوا بأسبانيا إلى أن أزاحهم العرب الى شماليها واستولوا على الاندلس سنة ٧١١ م ـ ٩٢ هـ

أبى المصريون فى عصر حكم الرومان الظلم والاستبداد فكثرت الفتن الداخليه والثورات ضد الرومان فكانت مصر مصدر متاعب أحيانا للدولة الرومانيه العظيمه ومتاعب كثيرة للدولة البيزنطية .

عاشت الدولة البيزنطية طويلا إذ تمكنت من صد هجمات القبائل المتبربرة

ولما نهض العرب بظهور الاسلام (مولد النبى عليه الصلاة والسلام سنة ٥٧١ م والهجرة سنة ٦٢٢ م) ظلوا يقتطعون من الدولة الرومانيه الشرقيه أملاكها . فاستولوا على الشام أولا ثم استولى عمرو بن العاص على مصر سنة ٦٤١ م ـ سنة ٢٠ هـ

الباب الثاني

مصر في العصر الوسيط

الفصل الاول

العرب : لقد تعلم أن الامة العربية نهضت نهضة كبيرة لما جاء الاسلام الحنيف . إذ بعد ان دانت شبه جزيرة العرب للاسلام فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم قام العرب فى عصر الخلفاء الراشدين بغزو الامم القديمة المجاورة لهم ففتحوا الفرس وأخذوا فى الاستيلاء على بلاد الدولة الرومانية الشرقية ففتحوا الشام ثم مصر سنة ٦٤١ م وفي عصر الدوله الامويه (٦٦١ م ـ ٧٥٠ م ، ـ ٤١ هـ ـ ١٣٢ هـ) امتدت الفتوحات الاسلامية فاستولوا على شمالى أفريقية فى القرن السادس (وكانت تابعة الدولة الرومانية الشرقية) ثم عبروا بوغاز جبل طارق واستولوا على الاندلس ٧١١ م ٩٢ هـ من أيدى القوط ـ وقد انتشر الاسلام في كل هذه البقاع

مصر فى عصر الخلفاء الراشدين والدولة الاموية

لما فتحت مصر على يد عمرو بن العاص صارت تابعة للخلفاء الراشدين. ثم تبعت الدولة الأموية بدمشق وكان الخلفاء فى ذلك العهد يبعثون لمصر بالولاة والقضاة ويأخذون منها الخراج ويجمعون منها الجند. وقد اختلط المصريون (الاقباط) بالعرب بالفاتحين بسبب اسلام من أسلم من قبط مصر

مصر فى عصر الدولة العباسية

ولما قامت الدوله العباسية ببغداد(٧٥٠م ـ ١٣٢ هـ) صارت مصر تابعه للعاسبين يرسلون لها الولاة والقضاة وكانت فى نظر العباسيين من الولايات المهمة التى عنوا بها عناية خاصة

الدولة الطولونية بمصر

(٨٦٨م ـ ٩٠٥م — ٢٥٤ هـ ـ ٢٩٣ هـ)

لما أرسل العباسيون أحمد بن طولون تمكن من أن يستقل بمصر وصارت له السطوة حتى كاد يخلع طاعة الخليفة

العباسى الذى لم يبق له بمصر فى عهد أولاد بن طولون الا الخطبة والخراج

ثم عادت مصر ولاية عباسية مرة أخرى فى عصر قصير

الدولة الاخشيدية بمصر

(٩٣٥م - ٩٦٩ م — ٣٢٤ ه - ٣٥٨ ه)

ولما جاء الاخشيد أعاد سيرة بن طولون فاستقل بمصر حتى اذا كانت أيام كافور الاخشيدى قدم جوهر الصقلى قائد المعز لدين الله الفاطمى وانتزع مصر للفاطميين

الدولة الفاطمية بمصر

(٩٦٩م - ١١٧١ م — ٣٥٨ ه - ٥٦٧ ه)

انتقل الفاطميون من المغرب وصارت خلافتهم بمصر وأنشأوا القاهرة حاضرة لهم وحينئذ انقطع ما بين مصر وبغداد من صلة . وقد بلغت الدولة الفاطمية من العز والسؤدد ما جعلها تنافس بغداد وامتد سلطانها على بلاد الغرب ومصر والشام وازدهت القاهرة بالعلوم والآداب وما يتبع ذلك من المدارس

والمكاتب فان الازهر ومكتبة الفاطميين اشتهرتا فى الافاق وقد أسسو مدنيه وحضارة وعمرانا بقى أثر كل ذلك بمصر فى الاجيال التى اتت بعدهم

الدولة الأيوبية

(١١٧١ م — ١٢٥٠ م — ٥٦٧ هـ — ٦٤٨ هـ)

تنازع نصارى أوروبا مع المسلمين فى الشرق من أجل بيت المقدس وقد ظهر القائد الشهير صلاح الدين الايوبى صاحب الفضل فى تقريب الحروب الصليبيه من الانتهاء وابقاء الاراضى المقدسة بأيدى المسلمين بسبب انتصاراته العديدة

ولما جاء صلاح الدين مصر لاخراج الصليبيين وكانت دولة الفاطميين قد ضعفت انتزع الملك منهم وبذلك انتهت الخلافة الفاطمية وأسس هو الدولة الأيوبيه ومع أنه أعاد الخطبة للعباسيين فقد كان مستقلا بمصر والشام استقلالا حقيقياً

كيف جلبت المماليك لمصر : لما ضعف العباسيون ببغداد وكان يناوئهم الامراء الذين اعتزوا باحزاب الشيعة والأمويين؟ أخذ العباسيون يستخدمون المماليك من الترك « أصلهم من بلاد التركستان شرقي بحر قزوين » ومن الشركس « أصلهم من القوقاز غربي بحر قزوين » اتخذوهم قوادا وجندا لما كانوا عليه من قوة وبأس ومهارة فى الحروب والفروسية ـ وما زال هؤلاء المماليك يستأثرون بالسلطة حتى كان منهم القواد والحكام والوزراء ورجال الدولة وأصبحوا أصحاب النفوذ ببغداد

وقد تشبه الأيوبيون بالعباسيين فى شراء المماليك « والناس على دين ملوكهم » فاستعانوا بهم فى الحروب الصليبية ثم استفحل أمرهم بمصر واستأثروا بالسلطة فى أواخر أيام الدولة الأيوبية وكانوا من أهم الاسباب فى زوال الدولة وانتهى الامر بأن حلوا محلها

انقراض الدولة الأيوبية : أكثر الايوبيون من المماليك حتي قيل إنهم اشتروا فى سنة ١٢٣٢ م ١٢ ألف مملوك

وفى أيام الملك الصالح أيوب الذى أكثر من المماليك الترك بنى لهم قلعة بالروضة سكنوها وسموا بالمماليك البحرية

وأغار الصليبيون على دمياط في أيام الدولة الايوبية فصدهم ملوكها ـ وفى أيام الملك الصالح أغاروا أيضا على دمياط بزعامة لويس التاسع ملك فرنسا فرابط لهم الملك الصالح بالمنصورة لمحاربتهم ولكنه مرض

ولما مات جاء ولده (توران شاه) من الشام وتولى الملك ثم خرج إلى الصليبيين وهزمهم بالمنصورة وأسر ملكهم الذى فدى نفسه ومن معه بالمال وكانت هذه الموقعة سنة ١٢٥٠ م ـ ٦٤٨ هـ وهى تعد من الوقائع الحاسمة بين المسلمين والصليبيين

ثم توالت الحوادث فى هذه السنة ـ فان توران شاه لما طالب شجرة الدر (سرية الملك الصالح) بأموال أبيه قتله المماليك وولوها عرش مصر . لكنها اعتزلت الملك بعد ثلاث شهور . فولى المماليك صبيا من الأيوبيين وجعلوا أحدهم قيما عليه وهو (عز الدين ايبك التركمانى) الذى تزوج من شجرة ـ

ثم خلع الايوبى الصغير واستبد هو بالملك وبذلك انقرضت الدولة الايوبية وتأسست دولة المماليك البحرية سنة ١٢٥٠م ٦٤٨ هـ

زوال الدولة العباسية من بغداد

بينما كانت الدولة الايوبية تحتضر بمصر كانت الدولة العباسية تنهار ببغداد فان التتار . (التتر) وهم قبائل أسيوية من وسط آسيا اشتهروا بالتخريب والتدمير وسفك الدماء أغاروا على بغداد بزعامة «هولاكو» واستولوا عليها سنة ١٢٥٨ م ـ ٦٥٦ هـ وقتلوا الخليفة العباسى وفر سلالة العباسيين فى الاقطار مشردين

دول المماليك

١٢٥٠ — ١٥١٧ م و ٦٤٨ — ٩٢٢ هـ

الفصل الثاني

دولة المماليك البحرية

١٢٥٠ — ١٣٨٢ م و ٦٤٨ — ٧٨٤ هـ

الملك المعز عزالدين ايبك

صار عز الدين ايبك التركمانى ملكا على مصر باسم الملك المعز مستقلا بها استقلالا حقيقيا وقد جمع بيده كل سلطة — قيل ولما قتل بايعاز من شجرة الدر تولى من بعده ابنه على باسم الملك المنصور

الملك المنصور على

كان الملك المنصور صغيرا فقام بأمور الدولة أحد المماليك وهو الامير سيف الدين قطز — وفي هذا العهد أغار التتار على بغداد سنة ١٢٥٨ م — ٦٥٦ هـ

الملك المظفر قطز

استبد قطز بالملك وخلع الملك المنصور وتسمى بالملك المظفر

بعد أن أغار التتار على بغداد زحفوا إلى الغرب قاصدين سوريا ومصر ـ وكانت سوريا أى الشام يحكمها عدة أمراء كل أمير مستقل ببلد أو مقاطعة ـ أما سواحل الشام فكانت أكثر مدنها بيد الصليبيين مثل يافا وعكا وصور وصيدة وبيروت وأنطاكيا ـ زحف التتار على الشام فاستولوا على حلب ودمشق وغيرهما واستمروا فى زحفهم إلى فلسطين وكان الملك المظفر قد جهز حملة حربيه لصدهم فقابلهم بفلسطين ودحرهم فى موقعة شديدة وكان ذلك بمساعدة أحد قواده من المماليك وهو الامير ركن الدين « بيبرس » البندقدارى الذى تمكن من إخراج التتار من الشام والاستيلاء عليها ـ وكان الملك المظفر قد وعده بولاية حلب لكنه أخلف وعده فقتله بيبرس واختاره قواد الجيش ملكا

الملك الظاهر بيبرس

صار بيبرس ملكا على مصر والشام وتسمى بالملك الظاهر

(١) أراد الظاهر أن يؤسس دولة قوية بمصر تكون أكبر مركز فى العالم الاسلامى فتحل القاهرة محل بغداد. لذلك لما حضر أحد سلالة العباسيين بايعه بالخلافة ثم استمد منه السلطة ليجمع فى يده السلطة الشرعية مع سلطته الفعلية بأن جعل الخليفة العباسى يصدر له بيعة بتعيينه ملكا على البلاد

(٢) صارت مصر من ذلك العهد « ١٢٦١ م – ٦٥٩ هـ » مقر الخلافة العباسية. لكن الخلفاء ما كان بيدهم أية سلطة بل كان أمرهم أشبه شىء بمشايخ الطرق وكان الواحد منهم يقال له الامام ومع ذلك فان استمداد السلطة منهم كما فعل الظاهر صارت سنة مشى عليها المماليك كلهم

(٣) أراد الظاهر أن يتشبه بصلاح الدين في محاربة الصليبيين فقام بعدة حملات حربية على سواحل الشام

خرب فى أثنائها يافا وانطاكيا وهما من أهم معاقل الصليبيين

(٤) قام أيضا بحملات ضد التتار فصد تيارهم عن الشام ومصر وتوغل فى بعض حملاته فى آسيا الصغرى

(٥) قام بجملة اصلاحات داخلية بمصر لتشييد الدولة على أساس متين فهو فى الواقع مؤسس دولة المماليك

ا ـ أصلح الجيش ودربه أحسن تدريب

ب ـ أنشأ أسطولا بحريا

ج ـ نظم الحكومة فنشر العدل والامن والعلم وأصلح الرى والزراعة ونظم البريد ونظم الضرائب وجبايتها فلم يرهق الاهالى وأنشأ المدارس والمساجد وأهمها مسجد الظاهر بيبرس الباقى أثره للآن بحى الظاهر والذى يشهد بقوة الملك فى ذلك العهد

مات الظاهر بعد أن حكم ١٧ سنة

وقد ترك الذكرى الحسنة عند المصريين

خلفاء الظاهر بيبرس

رأيت فيما مضى كيف كان المماليك يتولون عرش مصر فبينما كان يقوم الملك منهم وإذا بوزيره يخلعه لحداثة سنه أو يقتله طمعا في ملكه ويستولى على العرش

سار أكثر المماليك فى دولهم على هذه الحالة فتولى الملك بعد الظاهر ابنه الملك السعيد ثم خلع وتولى ابنه الثانى الملك العادل وكان صغيرا فخلفه وزيره الامير سيف الدين قلاوون الصالحى وتولى عرش مصر ويتبعها الشام وتلقب بالملك المنصور

الدولة القلاوونيه

الملك المنصور قلاوون

تمكن الملك المنصور قلاوون من تثبيت ملكه فبقيت أسرته تحكم نحو قرن من الزمان وقد قام هو بأعمال جليلة

(١) حاول التتار فى مدته غزو الشام ومصر فقام بحملة حربية ضدهم ودحرهم في موقعة هائلة بحمص

(٢) قام بعدة حملات ضد الصليبيين وكانوا قد وصلوا

إلى حال من الضعف وبعد موقعة حمص استولى على طرابلس من أيديهم وأعمل فيهم السيف

(٣) قام باصلاحات كثيرة بمصر . إذ ساد فى أيامه العدل والامن والرخاء

وترك من الآثارات مادل على اتساع الملك وتقدم الفنون والصناعات والمبانى فى ذلك العصر ومن هذه الآثارات جامع قلاوون بالنحاسين « وهى قبة دفن بها » ومدرسة بجانبه وأنشأ أيضا البيمارستان « المستشفى »

(٤) وقد أكثر من شراء المماليك الشراكسه الذين سكنوا الابراج فسموا بالمماليك البرجيه وهؤلاء استفحل أمرهم فى عصر خلفائه فكانوا سببا فى زوال الدولة القلاوونية والحلول محلها

الملك الاشرف صلاح الدين خليل

تولى بعد قلاوون ابنه صلاح الدين خليل وتلقب بالملك الاشرف

قام بحملة حربية كان والده قد جهزها للاستيلاء على عكا فتمكن الاشرف من اقتحام هذا الحصن المنيع وحينئذ سقطت المدن الصليبية التي كانت باقية على سواحل الشام وبذلك انتهت الحروب الصليبية (١٢٩٢ م ـ ٦٩١ هـ) بعد أن دامت نحو قرنين من الزمان

والاشرف بني المدرسة المعروفة الآن بجامع الاشرف وينسب له خان الخليلي

الملك الناصر محمد بن قلاوون

خلف الاشرف أخوه محمد بن قلاوون وتلقب بالملك الناصر ولكنه كان صغيرا فعزل ثم تولى مرة ثانية فكان من أعظم ملوك دولة المماليك

(١) أغار التتار فى عهده على الشام وتمكنوا من الاستيلاء على دمشق فقابلت الجيوش المصرية حتى دحروهم قرب دمشق وأسروا منهم عددا عظيما وشتتوا شملهم وحينئذ صدوا للمرة الرابعة

(٢) كانت التجارة بين أوروبا (خصوصا دول ايطاليا مثل

البندقية و بيزا) و بين الشرق «خصوصا فارس والهند» تمر بدولة المماليك «مصر والشام» ففرض عليها الملك الناصر مكوسا « ضرائب أو جمارك » بنسبة ١٠ ٪ فكانت هذه المكوس مصدر ثروة عظيمة تدفقت على خزائن السلاطين والدولة المصرية وسكان البلاد حتى عم الرخاء

(٣) أجرى الملك الناصر جملة اصلاحات بمصر

(ا) نشر العدل والامن والنظام

(ب) أعفى الفقراء من الضرائب

(ح) عضد العلوم والمعارف

(٤) كان عصره من أزهى عصور الحضارة المصرية إذ تقدم فن المبانى التي تحلت بأجمل النقوش وكثرت فى عهده العمائر

أقام الملك الناصر من المبانى والمشروعات العظيمة

(ا) القناطر لتوصيل المياه من النيل الى قلعة الجبل الباقية أثرها للآن بجهة فم الخليج

(ب) حفر ترعة لتوصيل النيل بالاسكندرية

خلفاء الملك الناصر

تفشت الفوضى بعد الملك الناصر فلم يتمكن أحد من الاسرة القلاوونية من تثبيت قدمه فى الملك لما وقع بينهم من النزاع على الملك ولاستفحال أمر الشراكسة حتى انقرضت الاسرة القلاوونيه وحلت محلها دولة المماليك الشراكسة البرجية

السلطان حسن

وجدير بالذكر من ملوك الدولة القلاوونيه السلطان حسن الذى بنى المدرسة العظيمة بجوار القلعة المعروفة الآن بجامع السلطان حسن

الفصل الثالث

دولة المماليك الشراكسة البرجية

(١٣٨٢ — ١٥١٧ م — ٧٨٤ — ٩٢٢ ﻫ)

تنازع خلفاء الناصر قلاوون على الملك وتدخل المماليك الشراكسة بينهم متشيعين لهم أحزابا حتى صار لهم نفوذ كبير في الدولة وظلوا يعزلون ويولون وانتهى الامر

بتقاص ظل الاسرة القلاوونية وحل محلهم مماليكهم من الشراكسة

ومع ذلك فقد وقع التناقس أيضا على الملك بين المماليك البرجية وانقسموا أحزابا وكثرت الحروب بينهم واشتدت الفتن الداخلية فكان الملك للغالب ولمن أوتى قدرة على تقوية حزبه وكان ذا شخصية فى الحرب والقتال

ولقد كان انقسامهم الى أحزاب سببا فى سلسلة من الانتقامات فارتكبوا من الظلم والعسف واهراق الدماء مالطخ تاريخهم بالعار

ومع ذلك فقد اشتهروا بتعضيد العلوم والآداب واتساع صدرهم للعلماء والفضلاء وأنشأوا من أجل ذلك المساجد والمدارس فقد كان عصرهم عصر نهضة علمية وقد التفتوا الى اقتناء الثروة لتصرف على حروبهم الكثيرة فاثقلوا كاهل الاهالى بالضرائب

وقد كان من دواعى كثرة الثروة التى كانوا يجمعونها من الضرائب والمكوس أن أكثروا من تشييد المبانى الفخمة

من مساجد وقباء ومدارس التى مازالت تزدان بها القاهرة للآن

الملك الظاهر سيف الدين برقوق

خلع آخر ملوك الدولة القلاوونية باتفاقه مع باقى المماليك وتولى العرش وتلقب بالملك الظاهر

١ أغار التتار بقيادة (تيمورلنك) على العراق وهددوا الشام ومصر فجهز لهم حملة ومات قبل أن يحاربهم

٢ شيد مدرسة تعرف الآن بجامع برقوق بالنحاسين

الملك الناصر فرج بن برقوق

١ زحف التتار على الشام واستولوا على حلب وخربوها ثم وصلوا إلى دمشق فقاومهم الملك الناصر بالجيش حتى طلبوا الصلح فصالحهم

٢ ولكن تألب عليه أمراء المماليك وهو بالشام فوقعت الفتنة والحرب مما جعل التتار يغيرون على دمشق ويخربونها

٣ قام بعدة حملات ضد الامراء الثائرين بالشام وأخيرا

تغلب عليه أحدهم وهو الامير شيخ وتولى الملك وتلقب بالملك المؤيد

بنى الملك الناصر مدفنا عظيما ذا قبتين خارج القاهرة في الصحراء الشرقية يعرف الآن بجامع برقوق

الملك المؤيد

أنشأ الجامع العظيم بقرب باب زويلة المعروف بجامع المؤيد

الملك الاشرف بارسباى

تتابع بعد المؤيد ملوك ضعفاء وقع بينهم بعض فتن حتى تغلب بارسباى وتلقب بالملك الاشرف

١ فى عهده غزا الاسطول المصرى جزيرة قبرص فصارت تابعة لمصر

(٢) اهتم بجمع الاموال (ا) فاثقل الاهالى بالضرائب

(ب) واحتكر تجارة بعض البضائع مثل السكر والاخشاب حتى ضج التجارة الاجانب

الملك الاشرف قايتباى

تولى بعد بارسباى ملوك ليس لهم شأن يذكر ثم تغلب قايتباى وتلقب بالملك الاشرف

١ كانت دولة الاتراك العثمانيين تجاور الدولة المصرية من شمالى الشام فوقع خلاف بين الدولتين فى عهد قايتباى أدى الى جملة حروب

٢ كثرة هذه الحروب جعلته يحتاج للاموال فأثقل الاهالى بالضرائب

٣ تقدم فن العمارة والنقوش فى عصره حتى ضارع عصر الناصر قلاوون — وهو منشىء مقبرة فخمة تعرف الآن بجامع قايتباى بقرافة المجاورين

آخر أيام المماليك

الملك الاشرف قنصوه الغورى

اعتلى عرش الدولة المصرية بعد أن اتفق مع المماليك ونال رضاءهم وقد كان من الدهاء والحزم وخشية المماليك بحيث هدأت الاحوال فى أيامه فلم تقع فتن داخلية فى أيامه

١ بنى مدرسة الغورى الجميلة المعروفة الآن بجامع الغورى (بالغورية) وبنى أمامها قبة ليدفن بها

٢ كانت الحروب الداخلية بين المماليك التى سبقت عهده جعلت خزائن الدولة خالية من الاموال فعمل على مائها باثقال كاهل الاهالى بالضرائب

التجارة الهندية : إن عصر المماليك يعد من عصور الرخاء والنشاط التجارى والاقتصادى فى مصر ، فكانت الصلة بين مصر ودول أوروبا موطدة الدعائم وعقدت المعاهدات مع فرنسا وجمهوريات ايطاليا لحماية التجار الاجانب وترغيبهم فى الاقامة بمصر حتى راجت الاسواق التجارية وصارت مصر الملتقى التجارى بين الشرق والغرب سواء أكان بمرور التجارة من مصر فالبحر الاحمر الى الهند أو من الشام الى العراق فالخليج الفارسى الى بلاد العجم والهند وبالعكس من الطريقين — مما عاد على المماليك وخزائنهم وعلى المصريين ضمنا بالاموال الطائلة التى كانت تجبى من المكوس والحركة التجارية ، الا أنه فى آخر أيام المماليك أى فى أواخر القرن الخامس عشر كان

البرتغاليون قد نشطوا نشاطا كبيرا فى الملاحة وكشفوا سواحل افريقية الغربية حتى وصلوا إلى رأس الرجاء الصالح ثم داروا حول افريقية وهناك على سواحل افريقية الشرقية وجدوا التجار من العرب هم القائمون بتوصيل تجارة الهند في المحيط الهندى والخليج الفارسى والبحر الاحمر وكان هؤلاء التجار يشعرون بقوة مصر ويعلمون أنها صاحبة المصلحة الكبرى في الطريق التجارى للهند فتنازع التجار العرب مع البرتغاليين وبعد أن وقعت عدة معارك تمكن البرتغاليون (بخيانة أحد العرب) من الاهتداء إلى طريق الهند.

قاوم أمراء الهند البرتغاليين وبعد حوادث ووقائع بين الطرفين تمكن البرتغاليون من الاستقرار فى بعض الموانى على ساحل الهند الغربى وحولوا تجارة الهند عن طريق مصر إلى طريق رأس الرجاء الصالح

استغاث العرب والهنود بالسلطان الغورى فهدد البرتغاليين أولا بتخريب بيت المقدس، ولما لم يفلح جهز أسطوله فى البحر الاحمر وساعدته دولة البندقية للقضاء على البرتغاليين فى المحيط

الهندى حتى يبقى لمصر مركزها التجارى - ولكن مع الاسف كان نصيب هذا الاسطول الهزيمة المنكرة فى المحيط الهندى وبذلك فقدت مصر مركزها التجارى وثروتها ورخاءها وهى أول مصيبة نكبت بها البلاد وتبعتها مصيبة أخرى كانت هى القاضية على استقلالها

استيلاء الاتراك العثمانيين على مصر : كانت مصر أعظم مملكة فى الشرق أيام حكمها المماليك فكانت الدول الاسلامية تتنافس فى ودها وكانت الدولة الفارسية صديقة مصر - أما الاتراك العثمانيون فكانوا قد استولوا على آسيا والبلقان وكانت عاصمة دولتهم القسطنطينية وكانوا فى أول الامر يحسبون بقوة مصر ويعملون حسابا للدولة المماليك

لكن مركز مصر الجغرافى والتجارى وغلالها وثروتها واعتدال هوائها كان يجعلها مطمح انظار الغزاة والفاتحين. ولذلك لما وقع نزاع بين الفرس والترك فى القرن الخامس عشر تذرع الاتراك بصداقة مصر للفرس أعدائهم واتخذوا من ذلك سببا لمناهضة الدولة المصرية العظيمة واتخذ الاتراك أيضا

ذريعة أخرى لمهاجمة مصر وهى أن سلاطين مصر من المماليك يأوون عندهم الفارين من وجه الدولة التركية

كان السلطان سليم الاول هو سلطان تركيا أيام كان السلطان الغورى بمصر ولما عزم السلطان سليم أن يحارب مصر خرج اليه السلطان الغورى بجيش عظيم ليصده عن البلاد ويحميها من غارة الاتراك عليها كما حماها أسلافه من غارات التتار وليحافظ على ما بقى لها من سؤدد وسلطان واستقلال

حشد السلطان الغورى جيشه فى حلب فخدعه السلطان سليم بأن تظاهر بأنه لا يريد الحرب وأنه يريد الصلح وبينما كان الغورى بحلب ينتظر إتمام المفاوضات للصلح واذا بالجيش التركى يهاجم الحدود المصرية ويداهم الجيش المصرى فقام فى الحال السلطان الغورى وتقابل الجيشان فى مرج دابق (بقرب حلب) وسرعان ما ظهر تفوق الجيش التركى على الجيش المصرى حتى تأثر الغورى وفاج لوقته ووقع تحت

سنابك الخيل وفر الجيش المصرى فتبعه السلطان سليم واستولى على الشام ثم دخل الديار المصريه

كان السلطان الغورى قد أناب عنه بمصر طومان باى ولما علم المصريون بهزيمة الغورى جعلوه عليهم فاستجمع طومان باى جيشا ليدافع عن مصر من غزوة الاتراك فتقابل طومان باى بجيشه مع الترك فى الريدانية (العباسيه الآن) ولكنه هزم ودخلت الجيوش العثمانية القاهرة سنة ١٥١٧ م ، ٩٢٣ هـ وفر طومان باى وحاول ارجاع القاهرة فلم يفلح ثم قبض عليه السلطان سليم وصلبه على باب زويله وبموته زالت دولة المماليك وفقدت مصر عزها واستقلالها فانه باستيلاء الاتراك عليها صارت مصر ولاية عثمانية

الكتاب الثاني

مصر في العصور الحديثة

من القرن السادس عشر الى القرن الثامن عشر

الباب الاول

الاتراك العثمانيون

الفصل الاول — اصل الاتراك والدولة العثمانية

فى وسط آسيا وطن المغول . قبائل من أهل الشدة والبأس ، ديدنهم الحرب والقتال وشن الغارات

خرج منهم قبائل مختلفة أغاروا على الشرق فى العصور الوسطى واكتسحوا دوله وأقاموا دولا قوية

فالسلاجقة خرجوا منهم وأغاروا على دول الإسلام واشتركوا فى الحروب الصليبية وملكوا آسيا الصغرى من أيدى الدولة الرومانية الشرقية (البيزنطية)

ومنهم التتار الذين اكتسحوا بغداد وهددوا الشام ومصر ولم يصدهم إلا المماليك

ومنهم الاتراك : وفدت قبيلتهم فى تلك السنين على على الشرق ونازعوا السلجوقيين ثم استظهر أحد سلاطينهم وهو عثمان الاول فى النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادى واليه نسب الاتراك العثمانيون

تمكن عثمان من انتزاع شرقى آسيا الصغرى من أيدى السلجوقيين ثم أخذ فى توسيع مملكته في غربى آسيا الصغرى منازعا الدولة الرومانية الشرقية . وقد تتابع بعده من السلاطين أمثال مراد وبايزيد الذين تمكنوا من الاستيلاء على آسيا الصغرى جميعها وعبروا إلى أوربا يحاربون الدولة البيزنطية ويقتطعون أجزاء منها فى البلقان ووصلوا في زحفهم وقتالهم إلى النمسا وهددوا عاصمتها (فيننا)

ثم جاءت أيام السلطان محمد الاول فى النصف الثاني من القرن الخامس عشر وكانت القسطنطينية مازالت تحمى الدولة الرومانية الشرقية وتتلقى هجمات العثمانيين وتصدهم بمناعة أسوارها لكن السلطان محمد الفاتح بفضل ماأوتى من مهارة وعزيمة أمكنه التغلب على مركز القسطنطينية الحصين فافتتحها واستولى عليها سنة ١٤٥٣م و بذلك سقطت الدولة الرومانية الشرقية بعد أن كافحت عشر قرون صدت في أثنائها القبائل المتبربرة ثم العرب ثم الاتراك

وقد احتفظت بعناصر المدنيتين اليونانية والرومانية من علوم وآداب

لما استولى الاتراك العثمانيون على القسطنطينية جعلوها عاصمة ملكهم وصاروا من أعظم الدول في الشرق وأكبر منافس لدول الغرب فكافح آل عثمان مع دول اوربا كفاحا طويلا وكانت الروسيا ألد أعدائهم ظلت تناصبهم العداء وتطمع فى الاستيلاء على القسطنطينية لتسيطر على البوسفور والدردنيل منفذ الروسيا إلى البحر الابيض المتوسط

الفصل الثانى — مصر تحت حكم الدولة العثمانية

دخل السلطان سليم مصر بجيشه ظافرا سنة ١٥١٧ م أو ٩٢٣ هـ وبذلك أصبحت مصر ولاية عثمانية بعد أن ظلت مستقلة نيفا وسبعة قرون من أول عهد الفاطميين

رتب السلطان سليم نظام الحكم فى مصر كما يأتى :

(١) يعين السلطان الوالى من قبله ويلقب بالباشا وبيده حكم البلاد وتنفيذ أوامر السلطان وجمع الاموال وإرسالها الى القسطنطينية

(٢) أنشأ مجلسا مكونا من قواد الجيش المحتل وهذا المجلس يعرض عليه مايريد الباشا أن يفعله بحيث لاينفذ الا مايوافق عليه المجلس

(٣) تقسمت الاقاليم الى أربعة وعشرين قسما كل قسم سمى السنجق (المديرية) وجعل على كل سنجق أحد المماليك لقبه (البك) لان المماليك أعرف من الترك بحالة البلاد وطبيعة أهلها

عاد السلطان سليم الى عاصمة ملكه :

(١) وقد أخذ معه الخليفة العباسى وجعله يتنازل له عن الخلافة فصارت الخلافة من ذلك الوقت يتوارثها آل عثمان وقد بقيت كذلك الى أن قامت بتركيا حركة وطنية رمت الى تشييد الدولة على أساس القومية فأزالت ملك آل عثمان ثم الخلافة وذلك في سنة ١٩٢٣ م

(٢) أخذ السلطان سليم معه أيضا أمهر الصناع المصريين فى مختلف الصنائع لاحياء الصناعات فى بلاده تلك

الصناعات العظيمة التي اشتهرت بها مصر فى أيام المماليك وقد فقدت مصر بسبب ذلك نيفا وخمسين صناعة

الحكم العثمانى

ولت تركيا على مصر ولاة كثيرين وعملت على سياسة عدم ابقاء الوالى مدة طويلة خشية طمعه فى الاستقلال بمصر وكان همّ الدولة العليه الحصول على الاموال فكان الباشوات لا يمنون بغير ذلك فأثقلوا كاهل الاهالى واستبدوا بهم لتحصيل الاموال للدولة ولانفسهم

ليس من الولاة العثمانيين من قام بأعمال هامة لتقدم البلاد سواء أكان في الصناعة أو الزراعة أو الحالة الاقتصادية على العموم أو فى العلوم والآداب

ولم يهتموا بتشييد المبانى وليس منهم على كثرتهم الا قليل جدا الذين عنوا بتشييد بعض المدارس والمساجد مثل سنان باشا الذى شيد مسجدا فخما ببولاق

سارت الاحوال ببعض الهدوء مدة القرنين الاولين من الحكم العثمانى بمصر لما كانت الدولة مازالت على درجة

من القوة و بعد ذلك دب فيها الضعف فأهملت وحدات الجيش العثمانى الذى كان فى الولايات كما أن الولاة لم يهتموا به مما أفسد أخلاق الجنود ووقع النزاع بين الجيش والولاة فعمد الجند إلى معاكسة الاهالى وامتدت أيديهم إلى سلب المصريين ونهبهم والغدر بهم فعمت الفوضى واختل الامن ولم يجد المصريون ملجأ للعدل

عودة سلطة المماليك

صار المماليك حكام الأقاليم وظلوا يستكثرون من جنسهم حتى أصبحوا عنصرا قويا في البلاد وكان كلما ضعفت تركيا يتغلغلون هم في القبض على زمام الأحوال حتى استفحل أمرهم وحينئذ عمدوا الى مناهضة الحكم العثمانى . وقد ذكر المماليك أيام دولتهم ومجدها فأملوا استعادة سلطانهم

وُجِد بجانب الباشا فى القاهرة أحد البكوات من المماليك يلقب بشيخ البلد وكانت وظيفته أشبه شىء بمحافظ المدينة أو حكمدارها وقد استفحل نفوذ شيخ البلد في أواسط القرن الثامن عشر حتي صارت له كلمة مسموعة عن الباشا

ولما كانت أيام شيخ البلد على بك الكبير الذى درس ماكان للمماليك من عز وقوة اعتبر العثمانيين مغتصبين لملكهم.

الاستقلال بمصر

تكاتف على بك الكبير مع سائر المماليك وثاروا فى وجه الدولة العثمانية ومنعوا عنها الأموال ثم أعان استقلال مصر (١٧٦٩ م أو ١١٨٣ هـ) وأراد أن يضخم هذه الدولة على حساب الأتراك فأرسل حملة إلى الحجاز وانتزعها منهم ثم أرسل حملة إلى الشام بقيادة أحد المماليك زوج ابنته وهو محمد بك ابو الذهب الذى اتفق مع العثمانيين وخان على بك الكبير وارتد بجيشه إلى مصر مما اضطر على بك إلى الهرب. وبذلك عادت مصر ولاية عثمانية سنة ١٧٧٢ م أو ١١٨٦ هـ

ولكن ظل نفوذ المماليك قائما وزعيمهم شيخ البلد بالقاهرة هو صاحب الكلمة العليا وليس للباشا التركى بجانبه إلا سلطة اسمية فلا أكثر من تحصيل الاموال وارسالها للدولة أما السلطة الحقيقية فبيد المماليك

وقد استمر الحال على ذلك مدة قصيرة إلى سنة ١٧٩٨.

أو م ١٢١٣ هـ حين كان ابراهيم بك ومراد بك من المماليك هما أصحاب السلطة العليا بمصر

نتائج الحكم العثمانى

كان للحكم العثمانى بمصر أسوأ النتائج :

(١) ضاع استقلال مصر وانقطع ما بينها و بين دول اوربا من صلة ، تلك الصلة الدولية التى كانت فى أيام المماليك

(٢) انحطت الحالة الاقتصادية إذ فقدت الصناعات العظيمة ولم يعن بالزراعة فضلا عن الاستبداد بالفلاح سواء أكان من المماليك حكام الاقاليم وأصحاب الاطيان الواسعة أو من الحكام الترك الذين اثقلوا كاهلهم بالضرائب . واما التجارة وكانت أكبر منبع للثروة فقد تحولت إلى طريق رأس الرجاء الصالح ولم تعن تركيا باعادة مركز مصر التجارى

(٣) لم يقم للمصريين قائمة حربية فقد كان يحتل البلاد جيش من الترك عاث فى الارض فسادا فى آخر الامر وكانت تركيا تأخذ آلاف المصريين فى كل عام للحرب فى الخارج ولا يعودون حتى فقد المصريون الروح

الحربية ونسوا أيام كان لمصر جيش دوخ الاعداء وحماها من كل اعتداء

(٤) كان لكثرة تغيير الولاة ولكثرة المنازعات بين الترك والمماليك أن استبدوا جميعا بالمصريين واعتدوا عليهم نهبا وسلبا أو انتهاك أعراض ـ فكان المصريون يدفنون ما معهم من مال ونفائس فى باطن الارض ثم يموتون فتنسى هذه الاشياء . وكان من أثر هذا الاستبداد فقدان الروح الوطنية والاستقلالية والفكرة القومية عند المصريين

(٥) لم يبق فى مصر من أسباب التشجيع على العلم شيء وانحصر العلم فى طائفة يسيرة بالازهر فشت بينها الخرافات ولم يوجد للتعليم من ينهض به حتى عم الجهل ربوع البلاد

وعلى العموم فقد اندثرت بمصر معالم الحضارة والمدنية ومظاهر الثروة والتقدم المادى والادبي بسبب الحكم التركى اثناء ثلاثة قرون تقريبا

الباب الثاني

اوروبا والحملة الفرنسية

الفصل الاول — اوروبا

حضارة الرومان

كان للرومان حضارة بقي أثرها في شعوب اوروبا وكانت قد امتدت الى شعوب الشرق وظلت هـذه الحضارة تتقد ويسطع نورها إلى القرن الخامس الميلادى حين أغارت القبائل المتبربرة على بلاد الدولة الرومانية فزالت مظاهر المدنية واندثرت معالم الحضارة والحرية

العصور الوسطي

انغمست أوربا فى الجهل من القرن الخامس الميلادى الى القرن الثالث عشر حين ابتدأت أشعة من نور وتسمى هذه الفترة الطويلة بالعصور الوسطى لانها توسطت بين العصور القديمة التى ظهرت فيها المدنيات وآخرها مدنية الرومان وبين العصور الحديثة التي ابتدأت بالنهضة فى اوربا من القرن الرابع عشر الميلادى ومابعده

النهضة فى اوربا

بدأت أشعة من نور العلم تسطع فى اوربا في القرن الرابع عشر الميلادى وتزايدت هذه الاشعة شيئا فشيئا فبدأت اوربا تنهض من كبوتها واستمرت في العصور الحديثة وترجع النهضة الى أسباب كثيرة نذكر بعضها :

(١) الحروب الصليبية : لما وقعت الحروب الصليبية ونزحت أقوام من اوربا الى الشرق شاهدوا بالشرق ما كان فيه من حضارة ومدنية وعلوم ومعارف لان المدنية الاسلامية كانت تسطع فى الشرق أثناء العصور الوسطى. ولما عاد الصليبيون الى بلادهم نقلوا الى أهلهم ما شاهدوه من أنواع الصناعات والحرف واستخدام الماء والهواء في ادارة المطاحن وغيرها وانتشار العلم والعرفان . وحثوا أهلهم على التزود من العلم والاخذ فى أسباب الترقى

(٢) فتح القسطنطينية : حفظت الدولة الرومانية الشرقية فى بلادها علوم اليونان والرومان لان القبائل

المتبربرة لم تستطع التغلب عليها فلما استولى الاتراك على القسطنطينية سنة ١٤٥٣م خرج العلماء والاساتذة والطلبة حاملين الكتب في أيديهم والعلوم فى صدورهم وانتشروا فى انحاء أوربا الغربية (ايطاليا وفرنسا والمانيا وهولاندا وبلجيكا وانجلترا) فانتشر العلم في هذه الأقطار وعملت الامم على احياء علوم اليونان والرومان وآدابهم وفنونهم

(٣) الطباعة : اخترعت الطباعة فى المانيا فى القرن السادس عشر وترقت فى انجلترا فساعدت على النهضة فى اوروبا

وبينما كان الشرق يتدهور فِي هذه الايام بضياع معالم الحضارة والمدنية خصوصا فى مصر كانت اوروبا تنهض وتتقدم وظلت كذلك على مدى الايام من القرن الخامس عشر إلى التاسع عشر حتى بلغت أوج الحضارة والمدنية الحديثة التى تجلت فى الاستكشافات والاختراعات واستخدام الطبيعة كل هذا بفضل احياء العلوم والآداب واثر النهضة

فى اوروبا . فالسكك الحديدية ومراكب البحر وآلات الصناعات هى من أثر استكشاف البخار فى القرن الثامن عشر ثم البرق والتليفون والفونوغراف والسيارة والطيارة والغواصة وغيرها كلها آيات الاستكشاف والاختراع فى اوروبا

الفصل الثاني — الثورة الفرنسية

كان من أثر النهضة فى اوروبا وتقدم العلوم والآداب أن ظهر علماء فى القرن الثامن عشر نبهوا الافكار بكتاباتهم ومؤلفاتهم إلى حقوق الفرد ومبادئ العدل والمساواة والحرية وإلى حقوق الشعوب وسلطة الامم وطالبوا باصلاح نظام الحكم فتطورت الافكار فى اوروبا خصوصا فى فرنسا وابتدأت الشعوب تسعى بكل الوسائل للقضاء على النظامات الاستبدادية القديمة وعلى سلطة الفرد المطلقة لتحل محلها سلطة الامة فى الحكم

كانت فرنسا فى القرن الثامن عشر تتدهور ماليا بسبب إسراف بعض ملوكها وسوء سياستهم . فلما كانت أيام الملك لويس السادس عشر حاول مع بعض وزرائه إصلاح الاحوال

المالية ولما لم يوفقوا لجأ إلى عقد جمعية عمومية وطنية تمثل طبقات الامة لتنظر فى شئون فرنسا المالية لعلها تستطيع تحسين الأحوال وتهدئة الرأى العام الذى كان ساخطا على الحالة فكانت هذه الجمعية هى النواة التى اثمرت فأخرجت سلطة الامة إلى الوجود إذ ظلت هذه الجمعية تأخذ السلطة لنفسها شيئا فشيئا من الملك يساعدها الشعب حتى قبضت على زمام الحكم وانفتح الباب أمام الشعب لخلع مظاهر الاستبداد القديم والسلطة الملكية المطلقة فثارت ثائرة الشعب في يوم ١٤ يوليه سنة ١٧٨٩ م وهدم سجن «الباستيل» في باريس وكان سجنا للسياسيين (١) وقد كان هذا العمل أكبر مظهر لانتقاض الامة على الحكم الملكى المطلق واشتعال فرنسا بلهيب الثورة لتأييد سلطة الامة ثم تقلبت الحوادث بعد ذلك إلى سنة ١٧٩٢ فأعلنت الجمهورية وبذلك زالت السلطة الملكية وحلت محلها سلطة الامة

---

(١) وقد اقيم مكان هذا السجن تمثال الحرية وصار يوم ١٤ يوليه من كل سنة عيد الحرية

ثم تطورت الافكار والاحوال حتى ساء الظن بالملك أنه يساعد ملوك أوربا على اخماد الثورة الفرنسية التي قامت على دم الشعب فأعدموا الملك سنة ١٧٩٢ واستمرت الاحوال تتغير بين تنازع الزعماء والاحزاب حتى اذا كانت سنة ١٧٩٥ كان الشعب ما زال متهيجا يريد قلب نظام الحكم وكان في ذلك الهياج خطر على فرنسا. واذا بأحد الضباط البواسل جاء بمدافع فرقته وأقمع ثروة العامة فى باريس .هذا الضابط هو نابليون بونابرت . وكانت دول أوربا قد خشيت أن تمتد أفكار الثورة الفرنسية الى بلادها فتألبت على فرنسا لتقضي على الثورة مما جعل الجمهورية تبعث بونابرت على رأس جيش لمحاربة النمسا وكانت من أكبر الدول اذ ذاك فهزمها فى ايطاليا وأرغمها على الصلح سنة ١٧٩٧

الفصل الثالث ـ الحملة الفرنسية على مصر

. اسباب الحملة .

لما عاد بونابرت من حرب النمسا فكر فى تجهيز حملة لغزو مصر وترجع الاسباب التى دعت اليها الى ما يأتى :

(١) كان العداء مستحكما بين فرنسا وانجلترا ذلك العداء

الذى يرجع عهده الى القرون الوسطى ، وكانت انجلترا
مع دول أوربا ضد الثورة الفرنسية ، أضف الى هذا
أن انجلترا كانت حلت محل فرنسا بعد منازعات وحروب
فى استعمار الهند فوجد بونابرت أن الاستيلاء على مصر
يقطع طريق الهند على انجلترا

(٢) إن الاستيلاء على مصر يزيد من نفوذ فرنسا في البحر
الابيض المتوسط ليكون لها السيادة التجارية والبحرية

(٣) استغلال مصر كثيرة الخيرات الطبيعية وذات المركز
التجارى الممتاز

(٤) ماقيل عن اضطهاد المماليك للرعايا الفرنسيين فى مصر
خصوصا التجار

(٥) اطماع بونابرت لتكوين امبراطورية فى الشرق مقتفياً
أثر الاسكندر الاكبر ويوليوس قيصر

تجهيز الحملة وسيرها

وافقت حكومة الجمهورية على أن يقوم بونابرت بحملة على مصر
فجهزت الحملة سرا وتظاهر بونابرت انه يريد مهاجمة انجلترا

من سواحلها حتى تجهزت الحملة التى تكونت من نحو أربعين ألف مقاتل بما يلزمها من الاسلحة والمدافع والزخيرة ومن قواد وضباط من خيرة رجال فرنسا المتأثرين بحماسة الثورة واصطحب حملة علمية مكونة من نحو مائة عالم فى كل علم وفن. ثم أقلعت الحملة من ميناء طولون فى ٩ مايو سنة ١٧٩٨ م وسارت حتى استولت على ملطا وفى أثناء ذلك علمت انجلترا بقيام الحملة فأرسلت أسطولا بقيادة (نلسن) ليقتفى أثر بونابرت. فوصل ملطا بعد أن غادرها بونابرت فسار الى الاسكندريه قبل أن يصلها بونابرت لكن السيد محمد كريم حاكم الاسكندرية لم يسمح للانجليز بالنزول فذهبوا للبحث عن بونابرت

وبعد أسبوع وصلت الحملة الفرنسية امام الاسكندرية فى أول يوليه سنة ١٧٩٨ ونزلت غربى المدينة وهاجمت أسوارها واستولت عليها بعد أن اشتبك الاهالى والجند معهم واضطر حاكمها الى التسليم

بونابرت فى الاسكندرية

نشط بونابرت فى الاسكندرية تشجيعا لجنده الذين

ملّوا حرارة الطقس. كما أنه رتب الادارة فجعل السيد محمد كريم حاكما وبجانبه أحد القواد الفرنسيين وهو (كليبر) ونشر منشورا على الاهالى ليهدىء روعهم ذكر فيه أنه جاء من قبل الجمهورية لتخليص المصريين من استبداد المماليك وأنه يحترم الدين الاسلامى

الاستيلاء على القاهرة

أرسل بونابرت حملة لفتح رشيد وسارهو بباقى الجيش حتى وصل دمنهور ثم الى الرحمانية وفيها التقى بالجيش الذى فتح رشيد بمعونة بعض قطع الاسطول ثم ساروا جميعا حتى شبراخيت وعندها التقوا بجيش يقوده مراد بك آت به من القاهرة فهزم وتقهقر جنوبا حتى جاء انبابه واستعد فيها للقاء الفرنسيين وصدهم عن العاصمة كما أن ابراهيم بك تحصن ببولاق وساعده أهالى القاهرة الذين فزعوا حين اقترب الفرنسيون من انبابه

انتصر بونابرت على مراد بك فى انبابة واضطر الى الهروب (ويسمى الفرنسيون هذه الموقعة بموقعة الاهرام لان الاهرام أمامهم وكانت فى ٢١ يوليه سنة ١٧٩٨ م) ثم سار بونابرت الى الجيزة

بونابرت فى القاهرة

وفي اليوم الثانى جاء اليه علماء وأعيان القاهرة لتسليم المدينة اذ لم يجـدوا مفرا من ذلك لان ابراهيم بك حين ظهرت له هزيمة مراد بك فر إلى الشرقية وفزع أهل القاهرة خوفا ورعبا وترك معظمهم المدينة بحالة سيئة

أمن بونابرت العلماء والاعيان ودخل المدينة وتسلم القامة

بونابرت بالقاهرة

١ استولى على املاك المماليك وأموالهم
٢ أرسل جيشا لمطاردة مراد بك بالصعيد
٣ أرسل جيشا لمطاردة ابراهيم بك بالشرقية فلم يقو عليه فذهب بنفسه وهزمه بالصالحية حتى فر الى الشام
٤ شكل مجلسا سمى بالديوان من العلمـاء والأعيان ليسترشد به فى إدارة شئون البلاد
٥ عين حاكما فرنسيا على القاهرة
٦ أمر باجراء بعض الاصلاحات والأعمال الداخلية على النمط الاوربى الذى لم يتعوده المصريون ككنس

الشـوارع ووضـع مصابيح على الابواب وقيـد
المواليـد والوفيات والزواج في سجلات مخصوصة
في دوائر الحـكومة وفرض الضرائب مما دعى إلى
الاستفسار عن أملاك المصريين

٧ أمر بهدم بعض بوابات الحارات و بعض المساجـد
لتحصين القاهرة

و بينما يقـوم بو نابرت بهـذه الاعمال فى القاهـرة إذ
عـلم أن الاسطول الانجليزى جاء إلى مصر وحطم
الاسطول الفرنسى فى موقعـة بأبى قـير فحزن
بو نابرت خصوصا لانقطاع الصلة بينه و بين فر نسا

ثورة القاهرة

استاء أهالى القاهرة من بو نابرت للاسباب الآتية

١ لم يعهد المصريون الاصلاحات التى أرادها بو نابرت
فظنو أنه يريد بهم سوءا

٢ كان لهدم بعض البوابات والمساجد أثر فى نفوس المصريين

٣ علموا أنه أمر بقتل السيد محمد كريم

فلما علموا بتحطيم الاسطول الفرنسى و بلغهم أن تركيا
أرسلت جيشا لاخراج الفرنسيين من مصر ظنوا أن
بونابرت صار في موقف حرج فثاروا فى وجهه
و اشتعلت القاهرة بالثورة (اكتوبر سنة ١٧٩٨) فأقمعها
بونابرت بالمدافع ودخلت عساكره الازهر بخيولهم
حتى ذهبت إليه العلماء يرجونه ثم هدأت المدينة

الحملة العثمانية الاولى

ارسلت الدولة العثمانية حملة بمساعدة الانجليز بعضها
جاء من طريق الشام و بعضها تجمع في رودس فخرج إليهم
بونابرت ليهاجم الحملة الآتية من الشام فاستولى على سواحل
فلسطين ووصل إلى عكا وحاصرها وكان حاكمها أحمد باشا
الجزار الذى دافع عنها وساعده الانجليز من جهة البحر باسطول
بقيادة (سدنى سمث) حتى اضطر بونابرت الى الرجوع عنها
وعاد الى القاهرة ولم يكد يصل حتى علم أن الحملة العثمانية التى
تجمعت فى رودس قد جاءت بحرا الى السواحل المصرية
ووصلت الى أبى قير فسار اليها ونزل معها فى موقعة برا

حتى هزمها هزيمة منكرة وحينئذ فكر فى العودة الى بلاده لما علمه من حصول انقلابات في فرنسا فغادر مصر سرا فى ٢٥ أغسطس سنة ١٧٩٩

كليبر فى مصر

صار كليبر القائد للحملة الفرنسية لكنه وجد أن مركز الحملة أصبح حرجا لان الجيوش التركية بمساعدة الانجليز كانت قد وصلت إلى الحدود المصرية الشرقية فاتفق كليبر مع القائدين التركى والانجليزى بمعاهدة العريش (يناير سنة ١٨٠٠) ولكن الحكومة الانجليزية لم توافق عليها

وفى أثناء مفاوضات الصلح كان بعض الجيش التركى وصل ضواحى القاهرة ثم دخلها فاضطر (كليبر) الى مقاتلتهم وهزمهم فى المطرية وعلى أثر عودته الى القاهرة ثارت في وجهه الاهالى فاخمد ثورتهم وبعد قليل اغتاله سليمان الحلبي (١٤ يوليه سنة ١٨٠٠)

منو فى مصر

قام بالأمر بعده القائد منو الذى أسلم وصاهر عائله اسلامية

الحملة العثمانية الثانية

كان الاتراك والانجليز قد دبروا حملة أخرى لاخراج الفرنسيين من مصر يأتى بعضها من طريق الشام وبعضها من طريق البحر فخرج منو للقاء الحمله الآتيـة من البحر ولكنه هزم وحوصر فى الاسكندرية

ثم سارت الحملة المنتصرة حتى وصلت الرحمانية وعندها التقت بالحملة الآتية من الشام وبعد أن استولوا على الرحمانية ساروا جميعا للاستيلاء على القاهرة وكان فيها القائد (بليار) الذى لم يجد مفرا من التسليم والاتفاق على أن يعود بجيشه الى فرنسا وبعد قليل اضطر منو الى التسليم فى الاسكندرية وغادر الديار المصرية مع من بقى من الحملة الفرنسية ١٣ سبتمبر سنة ١٨٠١

البعث العلمي

قام العلماء الذين حضروا مع الحملة في أثناء الثلاث سنوات ببحث أحوال مصر من كل الوجوه الجغرافية والتاريخية والاقتصادية (من زراعة وصناعة وتجارة) والصحية

والاجتماعية والعادات والاخلاق ونقبوا عن الآثار ودرسوا برزخ السويس ووضعوا الخرائط والرسومات وجمعت كل أبحاثهم في كتاب كبير جدا يسمى وصف مصر

نتائج الحملة الفرنسية

١ تنبه المصريون إلى أوربا وما فيها من علوم وفنون ومدنية وتطلعوا الى الوقوف على حالتها العلمية والسياسية خصوصا فرنسا

٢ تنبه المصريون الى أهمية الاشتراك فى الحكم وإلى قيمة الحرية وانبعثت فيهم روح القومية

٣ تنبه الانجليز الى أهمية مركز مصر

٤ تنبه الاتراك الى أهمية مركز مصر والى وجوب القبض على زمام الامور وعدم اهمالها أو تركها للمماليك

٥ أحست المماليك بالفرق بين نظمهم الحربية العتيقة وبين الخطط الحربية الحديثة التى حاربهم بها بونابرت

٦ انفتح الباب لمعرفة تاريخ مصر القديم بالتحقيق لان أحد ضباط الحملة عثر على حجر رشيد

الكتاب الثالث

مصر الحديثة

فى القرنين التاسع عشر والعشرين

الباب الاول

محمد علي وخلفاؤه

الفصل الاول — محمد على منشىء مصر الحديثة

(١) المصريون : أصبح المصريون في حاجة إلى رئيس يقودهم إلى ما تطلعوا اليه وهو اصلاح حالهم سياسيا واجتماعيا وعلميا واقتصاديا بعد أن عانوا كثيرا على مدى ثلاثة قرون

(٢) الدولة العلية : وجهت الدولة العثمانية اهتمامها للقضاء على سلطة المماليك والقبض على زمام الاحوال بمصر ولكنها كانت في حالة ضعف للاسباب الآتية

(ا) أنهكتها الحروب مع الروسيا

(ب) تباين عناصرها

(جـ) انتقاض حكام الولايات عليها

(د) ضعف الجيش فقد كان يجمع من الرعاع

(هـ) مطامع الوزراء

(٣) المماليك : أرادوا أن يستردوا نفوذهم الذى كان لهم

قبل الحملة الفرنسية وكانوا على استعداد لمحالفة من يكون نصيرهم

(٤) بريطانيا العظمى . أصبح للانجليز مطامع فى مصر لانها طريق الهند ولانها منبع ثروة — وكان لابد لهم من نصير يعاونهم في البلاد وقت الحاجة فدبروا التحالف مع المماليك .

(٥) فرنسا : مع أن الحملة الفرنسيه قد خرجت من البلاد ولكن الفرنسيين وقفوا على أحوالها تماما وأصبح لهم مطامع فيها

وحينئذ أصبحت مصر بعد الحملة الفرنسية ميدانا تتنازع فيه خمس قوى

« محمد على »

وكان القدر قد خبأ لمصر بطلا ينقذها من الفوضى . وينهض بها ويعيدها دولة مستقلة ويجعلها العلم الخفاق في الشرق — ذلك البطل هو العاهل الاكبر (محمد على) منشىء مصر الحديثة الذى أمكنه بدهائه ومقدرته أن يتغلب . على

العناصر الخمسة التي كانت تتقاتل على مسرح السياسة المصريه

نشأته : ولد محمد على من سلالة البانية سنة ١٧٦٩ م ـ سنة ١١٨٣ هـ فى بلدة ؟ (قولة) ومات أبوه وهو طفل فتكفله عمه طوسن الذى مات بعد قايل فرباه أحد أصدقاء والده

ولما صار يافعا تعلم مايتعلمه أهل بلده كالفروسية واللعب بالسيف ولم يتعلم القراءة والكتابة .

اشتغل في شبابه فى جباية الاموال لحاكم (قولة) فأظهر كفاءة ثم تزوج من غنية واستغل ثروتها فى تجارة الدخان ثم اشترك فى هذه التجارة مع أحد اليهود وهو (ليون) أصله من (مرسيليا) ويظهر أنه وقف على معلومات من ليون عن فرنسا كما أنه اكتسب منه التأدب الفرنسى

محمد على في مصر : ترك محمد على تجارة الدخان والتحق فى (رودس) بالحملة العثمانية الاولى التى جاءت مصر لاخراج الفرنسيين منها وكان وكيلا على إحدى الفرق .·. ولما هزمت هذه الحملة فى أبى قير كاد يغرق لولا أن « سدنى سميث » انتشله ـ وعاد إلى بلاده

ثم جاء مع الحملة الثانيه عن طريق الشام وهو الذى أبلى بلاء حسناً فى الاستيلاء على الرحمانية حتى رقى إلى رتبة قائد

ومن ذلك الحين بقى بمصر وقد وقف بذكائه على كثير من أحوال مصر وأهلها وعلى الأغراض التي تتنازع عليها وظل يرقب الاحوال ويتحين الفرص. والظاهر أنه رسم لنفسه خطة للتمكن من القبض على زمام الاحوال في مصر — وتتلخص سياسته لتنفيذ خطته فيما يأتى

(١) اكتساب رضاء المصريين ومحبتهم له لانهم أصحاب البلد الحقيقيين وهـذا طريق سهل نظرا لوداعة المصريين وهدوء أخلاقهم وتقديرهم المروءة والجميـل

(٢) مناهضة الدولة العلية صاحبة السيادة على مصر وهو طريق سهل أيضا نظرا لضعفها

(٣) استئصال شأفة المماليك لانه لا يمكن أن تتفق مطامعه ومطامعهم وقد استعمل فى هذا الطريق الخديعة والدهاء

(٤) مناهضة الانجليز لأنهم حلفاء المماليك

(٥) الاستفادة من الفرنسيين حربيا وعلميا لانهم . أعداء

المماليك والانجليز والاتراك . ولانهم وقفوا على أحوال مصر

الاتراك والمماليك

حاول الاتراك الفتك بالمماليك على أثر خروج الحملة الفرنسية .

(١) كان حسين باشا القبطان رئيس الجيش التركى دبر مكيدة في أبي قير والقاهرة للفتك بهم ولكنها فشلت بحماية الانجليز لهم فحقد المماليك على الترك

(٢) ولما تولى خسرو باشا ولاية مصر وكان مملوك القبطان ازداد حقد المماليك ـ وهو الذى أرسل حملة بقيادة طاهر باشا فاندحرت هذه الحمله وطاردتها المماليك بقيادة زعيمهم عثمان بك البرديسى الذى طاردها من الوجه القبلى إلى البحرى حتى ساحل البحر الابيض فأرسل الوالى مدداً بقيادة محمد على ولكنه فشل أيضا مما أثار غضب خسرو باشا على القائدين حتى إنه عقد مجلسا لمحاكمة محمد على فلم يحضر — وقد نشأت عداوة بينهما كانت مثارا لعدة حوادث بعد ذلك

ظهور محمد على

كان جند الجيش العثمانى لم يحصلوا على رواتبهم فثاروا ونهبوا وسلبوا أهل القاهرة ولما إنضم اليهم طاهر باشا اضطر خسرو الى الهرب الى دمياط . وحينئذ صار طاهر باشا نائبا عن الوالى برضاء علماء القاهرة وأشرافها (في ١٨ مايو سنة ١٨٠٣م) ولكن لم تمض إلا ٢٢ يوما حتى ثار الجند عليه من أجل الرواتب وقتلوه .

وبالرغم من أن محمد علي الذى ظهر وعرف عند المصريين بسبب عطفه عليهم ودفاعه عنهم خصوصا عند ثورة الجند فانه لم يقبل أن يكون نائبا عن الوالى بعد مقتل طاهر باشا وانما أتبع سياسة عجيبة فان اتحد مع البرديسى زعيم المماليك وتعاونا على إخضاع من ثار من المماليك بالوجه القبلى ثم عمدا الى الفصل في أمر خسرو فذهبا الى دمياط وبعد مناوشات تمكنا من القبض عليه وأحضراه سجينا بالقاهرة

وقد جعلا ابراهيم بك الذى عاد من الشام نائبا عن

الوالى وذاك بسبب شيخوخته ومع ذلك فقد كان له الاسم وعليها العمل [illegible]

ولت تركيا واليا جديدا (على باشا الجزائرى) الذى أراد أن يكوّن حزبا وطنيا من المصريين يعضده على استئصال شأفة المماليك ولكن البرديسى احتال في الأمر حتى قتله في يناير سنة ١٨٠٤

وما هو إلا شهر واحد حتى هبط أرض مصر محمد بك الالفى أحد زعماء المماليك عائدا من انجلترا . (وكان قد ذهب مع الحملة الانجليزية سنة ١٨٠٢ لتنظيم التحالف بين بريطانيا والمماليك) ولكن دهاء محمد على حال دون اتفاق البرديسي مع الالفى وما لبث الالفى حتى قاتله محمد على والبرديسى واضطراه الى الهرب الى الشام

والى هنا ترى ان محمد على قد تخلص من خسرو والجزائرى والالفى وكان في كل هذه الحوادث يعمل في الخفاء ويظهر البرديسى فى الميدان وحينئذ جاء دور البرديسى أيضا فطالبه بان يدفع للجند رواتبهم فما كان من البرديسى

إلا أن عمد الى جمع الاموال من المصريين بالقسوة والعنف فانتهز محمد على هـذه الفرصة وأظهر استياءه من أعمال البرديسى ثم انسلخ عنه فزاد حب المصريين له وحينئذ قاتل البرديسى وابراهيم بك حتى وليا الفرار ولحقا بالالفى بالشام

ومع أن محمـد على أصبح الوحيـد القادر على ضبط الاحوال بمصر إلا أنه وجد ان الفرصة لم تحن فلم يقبل ان يكون نائبا عن الوالى وأراد أيضا أن يظهر أمام تركيا بمظهر عدم الخارج عليها وانه يناهض المماليك فأخرج خسرو من محبسه وجعله يغادر مصر لعدم رضاء الجيش والمصريين عليه

أرسلت تركيا واليا على مصر هو خورشيد باشا الذى عجز عن دفع رواتب الجند فثاروا عليه وعمدوا الى سلب المصريين ونهبهم ومحمـد على فى اثناء ذلك يمنعهم حتى التجأ اليه المصريون وطلبوا منه ان يحميهم ففعل .

تولية محمد على حكم مصر

فطن خورشيد إلى سياسة محمد على وأغراضه فأوعز الى الباب العالى بوجوب إبعاد محمد على عن مصر حتى جاء

أمرها بتوليته واليا على جدة فلم يلتفت محمد على الى هذا التعيين ارتكانا على تعضيد المصريين له وعلى ما يراه من اقبالهم عليه وحبهم له فقاتل خورشيد وحاصره بالقلعة ٠

وعند ذلك اجتمع علماء القاهرة وأشرافها وأعيانها وقرروا تولية محمد على حاكما على مصر لما رأوه فيه من سداد الرأى والمقدرة والعدل وخرجوا اليه مع شعب المدينة على شكل مظاهرة وقام زعيمان منهم هما الشيخ عبدالله الشرقاوى شيخ الجامع الازهر والسيد عمر مكرم نقيب الاشراف وألبساه كركا (أشبه شيء بتتويجه على عرش مصر) فى يونيه سنة ١٨٠٥ م — ثم أرسل المصريون وفدا لتركيا مما جعل تركيا تبعث بفرمان بتولية محمد على واليا على مصر — وتعد تولية المصريين لمحمد على بمثابة انتخاب عام من الامة لرئيس الدولة المصرية وأساس الدستور المصرى

« توطيد سلطة محمد على »

مع تولية المصريين لمحمد على فمازالت هناك صعوبات تحول دون استقلاله بالبلاد وحكمها بما تمليه عليه ارادته

لمصلحة المصريين الذين أولوه ثقتهم وهـذه الصعوبات تتلخص فيما يأتى .

(١) عدم رضاء الباب العالى عليه فان اختياره واليـا كان بالرغم منه

(٢) المماليك . فان ماحاق بهم جعلهم يتحدون على الانتقام من محمد على

(٣) كان مجرى السياسة فى أوربا قد تغير إذ اشتبكت فرنسا مع انجلترا فى حرب وتحالفت تركيا مع فرنسا — وحينئذ تعرضت تركيا وممتلـكاتها ومنها مصر لاغارة انجلترا عليها

لكن محمد على كان موفقا في ظروفه وسياسته :

(١) أجزل محمد على العطايا والهدايا الى رجال الباب العالى الذين جعلوا السلطان يبعث بعهد جديد (فرمان) يؤيد به ولاية محمد على على مصر

(٢) أغار الالفى والبرديسى بجيش على مصر وبعـد

مناوشات مات الالفى والبرديسى فتفرقت المماليك وهرع معظمهم الى الوجه القبلى

(٣) جاءت حملة انجليزية على مصر سنة ١٨٠٧ م لتنتقم من الترك بالاستيلاء على مصر معتمدين فى ذلك على مساعدة المماليك فسير محمد على جيشا الى جهة البحيرة وهناك انضم اليه فريق من المصريين والعرب

∴ ثم نزل فى موقعة مع الانجليز فى جنوب رشيد وهزمهم هزيمة منكرة واضطرهم الى الجلاء عن الاراضى المصرية . وكان لهذا النصر صدى فى تركيا — فزاد رضاؤها على محمد على

(استئصال شأفة المماليك)

قام الوهابيون بثورة فى الحجاز (سنتكلم عنها فيما بعد) فطلبت تركيا الى محمد على أن يقمع هذه الثورة فخشى ان هو أرسل جيشا الى الحجاز انقلبت عليه المماليك فى مصر فصالحهم وعادوا الى القاهرة

واذ كان يشرف على تجهيز الحمله بالسويس علم ان

المماليك يتآمرون على اغتياله فعـاد مسرعا فى غير موعده وتحت جنح الليل واعتزم القضاء عليهم

هيأ محمد على حفلة بمناسبة سفر الحملة على الوهابيين . دعا اليها أمراء المماليك ورؤساءهم وفرسانهم فحضروا بالقلعة وكان عـددهم يربو على ٥٠٠ وعنـد خروجهم للاشتراك فى الموكب اغلقت أبواب القلعة بحيث انحصر المماليك فى مكان ضيق وانهال عليهم الجند ذبحا وتقتيلا حتى أبادوهم جميعا

ثم أرسل محمد على باشا الاوامر الى الاقاليم لقتل من يعثر عليه منهم وهكذا بادت هذه الطائفة سنة (١٨١١ م) ولم يقم لهم قائمه بعد ذلك وأمن محمد على شرهم

« الوهابيون »

نجد فى وسط بلاد العرب يسكنها قبائل من البدو مازلوا على فطرتهم ويحكمهم أمراؤهم آل سعود

ظهر في النصف الثانى من القرن السابع عشر محمد بن عبد الوهاب كان قد طلب العلم وتفقه فى الدين على مذهب

ابن حنبل - لاحظ ما استحدث فى الاسلام من بدع كثيرة. ومخالفات للكتاب والسنة فكون مذهبا يرمى إلى تطهير الدين من تلك البدع ولكنه أسرف في مذهبه فحرم زيارة القبور وتشييدها والاستغاثة بالانبياء والصالحين وغير ذلك من تعاليم يصعب على الامم الاسلاميه قبولها .

لم يلق مذهبه نجاحا إلا فى نجد وعضد آل سعود على نشره في القرن الثامن فى الحجاز وغيرها والظاهر أن آل سعود أرادوا اتخاذ هذا المذهب ذريعة للفتح والغزو وتأسيس دولة تجمع شبه جزيرة العرب فى قبضة يدهم

تمكن آل سعود من الاستيلاء على مكه والمدينة فى آخر القرن الثامن عشر داعين إلى مذهب الوهابية. قيل ودخلوا قبر النبي في المدينه ونهبوا ما فيه من نفائس كما أنه تعطل الحج فى مكة فلم يكن فى وسع الدولة العليه صاحبة البلاد وحامية الحرمين بصفتها دولة الخلافة الا ان تعمل على إخضاع الوهابيين ولكن مشاغلها وضعفها كانا يمنعانها من مباشرة العمل بنفسها فالجأت إلى محمد على (والعهد بهزيمته للانجليز

قريب) فقبل محمد على هذا التكليف ولعله أراد أن يستفيد منه التدريب واتساع الملك .

بعث محمد على ابنه طوسون على رأس جيش من الالبانيين سنة ١٨١٢ م الذى نزل فى (ينبع) ولكن الوهابيين هزموه فأرسل إليه مددا تمكن به من فتح المدينة ثم هُزِم قرب مكة فاضطر أبوه أن يقدم إلى الحجاز فتمكن من دحر الوهابيين فى عدة وقائع وعاد محمد على إلى مصر لحدوث قلاقل بها — ثم عاد بعده طوسون (بعد أن أصطلح مع الوهابيين) ومات في الاسكندرية

إلاَّ أن الوهابيين خرجوا ثانياً فأرسل محمد على ابنه ابراهيم سنة ١٨١٦ م فكسرهم وحاصر عاصمتهم (الدرعية) وبعد أن استولى عليها عنوة أحرقها لهم وخربها حتى جاء اليه أميرهم عبد الله آل سعود صاغراً فأحضره أسيرا الى مصر ثم أرسله الى الباب العالى (سنة ١٨١٨ م) وبذلك أدبهم ابراهيم وقضى على حركتهم القضاء المبرم — وكم رضيت الدوله على محمد على من أجل هذه الخدمه ؟

« فتح السودان »

كان محمد على يفكر في تكوين دولة قوية واسعة السلطان فعن له أن يفتح السودان ويضمه لمصر وكانت العوامل التي دفعته لهذه الفكرة هى الآتية

(١) كان بعض المماليك قد فر إلى جهة دنقلة لما طاردهم ابراهيم باشا بعد مذبحة القلعة فكان لابد من الاستيلاء على هذه الجهات حتى لايبقى للمماليك أثر

(٢) أراد محمد على أن يستجمع جيوشه من السودان بدل الالبانيين الذين كان يخشى من تمردهم وبدل المصريين الذين اعتقد أنهم لايقوون على الحرب

(٣) أراد أن يوسع نطاق التجارة فتأخذ الحكومة مكوسا كثيرة

(٤) أراد أن يستغل ما فى السودان من خيرات طبيعية خصوصا ماسمع به من وجود الذهب هناك

(٥) أراد أن يسيطر على النيل ومنابعه لان النيل حياة مصر وروحها .

سير محمد على جيشا بقيادة ابنه اسماعيل سنة ١٨٢١ م فوصل إلى جهات (دنقلة) وقضى على المماليك ثم زحف جنوبا حتى استولى على سنار وأرسل لوالده عدداً من العبيد لتنظيم جيش بهم

ولكن المرض فشا فى جيش اسماعيل فجاءه مدد على رأسه أخوه ابراهيم فاقتسما الفتح بينهما .

اتجه ابراهيم إلى الجنوب متبعا النيل الابيض ولكنه عاد إلى مصر لمرض أصابه

واتجه اسماعيل متبعا النيل الازرق حتى وصل الى تومرت . وبعد هذا النصر أقل راجعاً فقتله (نمِرْ) ملك (شندى) إحراقا فأرسل محمد على جيشا بقيادة محمد بك الدفتدار الذى انتقم من (نمر) وأحرق بلده شندى ـ ثم واصل زحفه إلى كردفان ـ وأسس مدينة الخرطوم لتكون عاصمة البلاد أما نتائج الحملة على السودان فتتلخص فيما يأتى :

(١) لم يجد محمد على الذهب ولم ترج التجارة التى كان ينتظرها
(٢) وجد أن السودانيين لا يلائمهم جو مصر ولا يستطيع تكوين جيش منهم
(٣) مهما قيل عن نتائج هذه الحملة فيكفى أنه ضم السودان لمصر وصار من ملحقاتها وسيطر على النيل بحق الفتح .

الفصل الثانى

« سياسة محمد على الداخلية وأعماله للنهوض بمصر »

إذا كان من آمال محمد على أن ينهض بمصر دولة قوية وأن يعيد لها رفاهيتها ورغدها ويستمتع بالسلطة فيها فان تحسين حالة البلاد الداخلية من أهم الامور التى يجب أن يعنى بها

وقد فطن محمد على إلى هذا فبعث مصر بعثا وأقالها من عثارها : — نظم الحكومة وعمل على زيادة الثروة بتنظيم الموارد الاقتصادية وتنميتها وعلى رفع مستوى التعليم وعلى إنشاء جيش وبحرية — ولم يفتر لحظة من يوم أن صار حاكما

إلى آخر أيامه يعمل على ترقية الشئون الداخلية للبلاد وكان هذا الرقى مصدر سعادة للأمه ـ وإليك مافعل :

« نظام الحكومة »

بعد الفوضى التى سادت فى العصر التركى وبعد أن ذاق المصريون حلاوة نظام الشورى وإصلاحات بونابرت جاء محمد على ووضع النظام الآتى للحكومة المصرية :

(١) أنشأ ديوانا خديويا وظيفته الفصل فى المشاكل الجنائية التى تعرض لضابط (حكمدار) القاهرة ـ فكان هذا الديوان أشبه شىء بمحكمة جنايات ـ بجانب القضاء الشرعى الذى كان يفصل فى الدعاوى الاخرى

(٢) أنشأ مجلس المشاورة وكان يختار هو أعضاءه من المصريين . وكانت وظيفته استشارية فى المسائل العامة (كالقوانين) التي يرى محمد على عرضها عليه ـ وهذه خطوة فى سبيل النظام النيابى

(٣) أنشأ المجلس المخصوص وكان أشبه شىء بمجلس

الوزراء يضم كبار موظفى حكومته للبت في المسائل الهامة التى تعرض للحكومة

(٤) انشأ دواوين أخرى كدار التجارة ودار الصناعة للحربيه والبحرية الخ .

(٥) قسم القطر إلى سبع مديريات وكل مديرية إلى مراكز وكل مركز إلى أخطاط ليسهل مد سلطة الحكومة على كل قرية

وبهذه الاعمال انتقلت البلاد من حالة الفوضى إلى حالة النظام فانتشر لواء العدل واستتب الأمن وانتظمت جباية الضرائب

« الاصلاحات الاقتصاديه والمشروعات العامه »

كان نهوض مصر يستلزم المال الكثير الذى لا يتوفر إلاّ بتحسين موارد البلاد الزراعية والصناعية والتجارية

ملكية الاطيان : كانت أطيان القطر المصرى أما مملوكة للمماليك أو موقوفة يديرها العلماء أو مملوكه (وكانت أقلها) إلى طبقات المصريين .

عمل محمد علي على جعل أطيان القطر المصري تحت تصرفه باعتباره الحاكم نيابة عن الخليفة الذي يملك الارض بحكم الفتح الاسلامي وبذلك سيطر على الاراضي الزراعية ولم يعد لاحد تقريبا ملكيه

فك الزمام : أمر محمد علي مديري الاقاليم بعمل مساحة عن أطيان كل قرية وذلك لتحديد مسئولية العمد والمشايخ عن مقدار الضرائب التي تحصل من كل قرية فكان العمدة يوزع الاراضي على الفلاحين لزراعتها وكان الفلاحون يدفعون الضرائب بحسب ما يزرعون (قلت الاراضي أو كثرت) و من هنا كانت العمد لها سلطان كبير على الفلاحين والمديرون لهم سلطة على العمد .

المتاجرة بالمحاصيل : كانت الحكومة تعين المحاصيل التي تزرع ثم تجمع المحاصيل في مخازنها في أنحاء البلاد وتقدر قيمتها وبعد خصم الضريبة تدفع الحكومة باقي الثمن وهذه المحاصيل تبيعها الحكومه للتجار الاوربيين فكانت تربح أموالا طائلة من وراء هذه الطريقة .

الزراعات الجديدة : كان يهم الحكومة تحسين حالة الفلاحين وإيجاد محاصيل متنوعه لترويج تجارتها فأدخل محمد على أصنافا من المزروعات كالقطن والقنب والنيلة والخشخاش وغرس الغابات وحسن زراعة الجناين.

قناطر الدلتا : اهتم محمد على بتنظيم الرى وحجز كميات من مياه النيل للانتفاع بها فى الزراعة الصيفية لذلك كان من أهم الاعمال انشاء القناطر الخيرية عند فرعى النيل لحجز كميات من المياه وراءها فى مجرى النيل — وقد تمت بعده ولكنها نظمت الرى فى الوجه البحرى وعادت على زراعته بالفائدة الكبيرة

بهذه الطرق أمكن محمد على أن يحصل على المال واعداد الاساطيل وتجهيز الجيوش — وإن كانت طريقة المتاجرة بالمحاصيل قد غلت يد الفلاح عن عرض محصولاته فى السوق لينال أرباحا مفيدة

الصناعة : اهتم محمد على بالنهضة الصناعية لما رآه من النهوض الصناعى الاوروبى فأدخل كثيرا من أنواع الصناعات الاوروبية وجلب لها مختلف الآلات البخارية وساعده في

ذلك خبراء من فرنسيين فى كل صنعة وفن وكان غرضه من ذلك :

(١) ايجاد صناعات وطنية يعتمد عليها فيما يلزم للجيش

(٢) توسيع ثروة البلاد وحفظ تلك الثروة فى داخلها وايجاد عمل للمصرين فيعم الرخاء

أنشأ معامل الغزل والنسيج للقطن والكتان والصوف والحرير فى بولاق والمراكز المهمة كالمحلة الكبرى والمنصورة ودمياط وبني سويف وغيرها وأنشأ مصانع الجوخ والصباغة بالنيلة المصريه والزجاج والطرابيش ومعامل السكر في الوجه القبلى ومعاصر الزيت عدا المصانع التى لزمت للجيش والاسطول كالمسابك والورش لصناعة الآلات الحديدية والاسلحة .

إلا أن هذه النهضة لم تدم إلا فى أيامه لانه كان قابضاً على زمام مالية البلاد من طريق المتاجرة بالمحاصيل .

ترعة المحمودية : اهتم بحفر ترعة المحموديه فأفادت فيما يأتى

(١) أحيت كثيرا من الاراضى البور فى مديرية البحيرة

(٢) سهلت الطريق التجاريه بين القاهرة والاسكندرية .

(٣) حسنت مدينة الاسكندرية

ميناء الاسكندرية : أصلح ميناء الاسكندرية فصارت مرفأ تجاريًّا عظيما وراجت التجارة المصرية فى البحر الابيض المتوسط كما أن الميناء أصبحت صالحة لبناء العمارات البحرية الكبيرة .

« التعليم »

انقطعت مصر عن أوربا فى العصر التركى ولم تعلم شيئا عن النهضة العلمية والتقدم العظيم الذى ساد أوروبا حتى أن البعث العلمى الذى حضر مع الحملة الفرنسية كانت أبحاثه وأعماله محلا للدهشة والاستغراب لما كان عليه المصريون من الجهل والاخذ بالخرافات

وجد محمد على الفرق عظيما بين تقدم أوروبا وتأخر . الشرق فعمل على رفع منار العلم فى مصر بنقل العلوم الحديثة من أوروبا لتكون منارا يهتدى به الشرق

أخذ محمد على يناصر العلم والتعليم ونهض بهما بالطرق الآتية .

(١) إنشاء المعاهد العلمية المختلفة

(٢) ارسال البعاث العلمية إلى أوروبا

(٣) تعضيد ومساعدة العلماء الاوروبيين

(١) أسس نحو خمسين مدرسة ابتدائية فى المدن الشهيرة فى أنحاء القطر — وأنشأ جملة مدارس ثانوية وأيضا المدارس العالية والخصوصية وأهما مدرسة الطب بأبي زعبل والتى يرجع الفضل في تأسيسها وتنظيمها إلى كلوت بك وتعد أول مدرسة طبية من نوعها في الشرق وما زالت الى الآن إذ تخرج منها عدد عديد من الاطباء الذين نفعوا مصر — وأنشأ بجوارها أيضاً مدرسة للطب البيطرى .

كما انه أسس مدارس : الهندسة والصنائع والفنون والزراعة ومدرسة الالسن

(٢) أما البعوث العلمية فقد أرسل عددا من المصريين لتلقى العلوم فى فرنسا ولما عادوا كانوا من الرجال الذين ساعدوا على النهضة العلمية والاصلاحية التى قام بها محمد على فى مصر

فهم رفاعه بك ناظر مدرسة الالسن ومظهر بك مهندس القناطر الخيرية وغيرهما

(٣) عضد محمد على العلماء الاوروبيين أمثال شمبليون الذى حل رموز اللغه المصريه القديمه وغيره من العلماء

(الجيش والبحرية)

عنى محمد على بأعداد جيش مصرى وأسطول مصرى لينفذ بهما سياسته وأغراضه وهي النهوض بمصر دولة مستقلة تحاكى أكبر دولة في البحر الابيض المتوسط وتستطيع أن تحمى استقلالها وتدفع عن نفسها إغارة الطامعين فيها .

ولاشك أنه كان يريد قطع الصلة بينه وبين تركيا ليتمثل استقلال مصر تاماً لاشك فيه وما كان ذلك الابجيش وأسطول يكونان رمزاً للقوة وعدة للكفاح اذا اقتضى الحال .

الجيش

نظم جيشاً بمساعدة أحد الضباط الفرنسيين وهو (كولونيل سيف) الذى ارتقى عند محمد على إلى أسمى المناصب واعتنق الدين الاسلامى وصار يعرف بسليمان باشا الفرنساوى

الذى أعد جيشا من المصريين ودربه باسوان

وقد أنشأ المدارس الحربية لتعليم المشاه والفرسان والمدفعية

الاسطول

أنشأ أسطولا عظيما ونظم البحرية بمساعدة أحد الفرنسيين وهو (المسيو بيسون) كما أنه أرسل جملة تلاميذ إلى أوروبا لتتعلم الفنون الحربية

كما أنه أنشأ بالاسكندرية دار صناعه (ترسانه) لبناء السفن وأنشأ مدرسة لتعليم الفنون البحرية

نتائج الاصلاح

لما انتظمت الحكومة وخيم الامن واتسعت الزراعة وتحسنت الاحوال الاقتصادية ·

(١) زاد عدد السكان فبلغ سنة ١٨٤٦ نحو ٤٤٠ ٤٦٧٦ ٤ وكان فى أوائل حكم محمد على نصف هذا العدد

(٢) زاد دخل الحكومة المصرية ونظمت لها ميزانية فبلغت الايرادات أربعة مليون ونصف من الجنيهات

الفصل الثالث — سياسة محمد على الخارجية

لم تأت سنة ١٨٢٠م حتى كان محمد على فى أوج قوته فى البر والبحر ولم يبق الا أن تأتى الظروف فيظهر محمد على بهذه القوة ويتخذ منها سلما ليصل به الى أغراضه وحينئذ كان لا بدّ له من الاشتباك مع تركيا ودول أوروبا وان تظهر مواهب محمد على السياسية وكيف استطاع أن يدخل فى السياسة الاوروبية وأن يظفر أكثر من مرة

(حرب اليونان)

كان للثورة الفرنسية تأثير على الشعوب المحكومة بغيرها حتي قامت أكثر شعوب أوروبا تطالب بالحريه والاستقلال وكانت اليونان من الولايات العثمانية فتاقت الى التخلص من تركيا ونيل الاستقلال ولو الداخلى . ولما كانت اليونان مصدر مدنية أوروبا ونهضتها فقد نظرت بعض الدول الى وجوب مساعدتها

شبت الثورة فى بلاد اليونان (سنة ١٨٢٠م — ١٢٣٦ هـ) ولكن تركيا كانت فى حالة ضعف وانحلال فلم تجد أمامها

إلا أن تلجأ الى محمد على ليقمع هذه الثورة كما قضى على الوهابيين ورأت لتشجيعه على العمل أن توليه جزيرة كريت وبلاد المورة (الجزء الجنوبى من بلاد اليونان) نظير قمع ثورة اليونان

أرسل محمد على ابنه ابراهيم ليقود الجيش المصرى والاسطول المصرى فأخضع بلاد المورة ثم سار الى شمال اليونان وكان مضطرا الى استعمال القوة والشدة مما فتح باباً لتدخل الدول الاوروبية زاعمة أنها تريد المحافظة على الشعب اليونانى سلالة من أخرجوا الثقافة الاوروبية وحينئذ أرسلت الدول أسطولا لحماية اليونان ولما تقابل هذا الاسطول مع المصرى التركى عند خليج نفارين قيل أنه وقع سوء الظن حتى اشتبك الاسطولان معاً فى غيبة ابراهيم باشا وأسفرت المعركة عن تدمير الاسطول المصرى التركى ولم تكتف الحلفاء بذلك بل أنزلت جيشا فرنسيا احتل بلاد المورة

ومازالت في نفس الانجليز الضغينة لمحمد على فانتهزت فرصة هذه الحوادث وظهر الاسطول الانجليزى أمام الاسكندرية مهددا بتخريب المدينة اذا لم يرجع ابراهيم

وجيشه من بلاد اليونان فوجد محمد على بعد ضياع الاسطول المصرى أنه من حسن السياسة الاذعان وارجع ابراهيم وأخليت بلاد المورة من العساكر المصرية سنة ١٨٢٨م — سنة ١٢٤٤ هـ

وأحاطت الظروف السيئة بتركيا وتشديد الخلفاء وخصوصا الروسيا حتى اضطرت تركيا الى منح اليونان استقلالا داخليا بمعاهدة (أدرنه) سنة ١٨٢٩م — سنة ١٢٤٥هـ

على أن محمد على خرج من هذه الحرب وقد لفت نظر أوروبا الى وجود عاهل شرقى جديد ينتظر أن يحل بمصر محل تركيا في الشرق والعالم الاسلامى

(محمد على والدولة العلية)

مهما يكن من نتيجه حرب اليونان بالنسبه الى محمد على فانها أظهرت ضعف تركيا وفتحت الباب لمحمد على ليستقل بمصر ويوسع مملكته على حساب تركيا

واذا أفضى الامر الى وقوع حرب فان محمداً عاليا متفوق حتما

طلب محمد على من تركيا بعد انتهاء حرب اليونان أن توليه عكا نظير مساعدته لها وخسارته في الحرب وقد أمل

أنه سينال أمنيته لان تركيا كانت تحارب الروسيا وظن أن الدول لا تتدخل بينه وبين تركيا خصوصا وقد كانت مشغولة بفتن داخليه في بلادها

لكن الظروف لم تحل دون وقوع الحرب وفساد العلائق بسبب تربع خسرو باشا في منصب الصدارة العظمى وهو عدو لدود لمحمد علي واليك الاسباب التي من أجلها أعلنت الحرب

(١) رفضت تركيا طلب ولايته عكا

(٢) كان فلاحوا مصر يفرون الى الشام هربا من الجزية والسخرة في الاعمال لعدم تعودهم ذلك فطلب محمد علي من والي عكا عبد الله باشا الجزار أن يرجع المصريين فلم يفعل بتحريض خسرو

(٣) علم محمد علي أن خسرو يعمل على عزله من مصر ووجد أنه اذا لم يعمل عملاً حاسما لنيل أمنيته بحد السيف فان ملكه وجهوده وآماله ضائعة لا محالة

(الحرب في الشام)

بالرغم من تدمير الاسطول المصري في حرب اليونان

والخسارة التى لحقت بالجيش فى هذه الحرب فقـد استطاع محمد على أن يجرد جيشا قويا وجعل على قيادته ابنه ابراهيم باشا وسليمان باشا الفرنساوى

وفى سنه (١٨٣٠م — ١٢٤٦ هـ) سار الجيش الى الشام وبسرعان ماوصل الى عكا وحاصرها وبعد قليل سقطت المدينه وأسر الوالى . (وحينئذ يعد ابراهيم باشا من الابطال فقد حقق ماعجز عنه بونابرت)

لم يجد سلطان تركيا فى هذه الحالة الا أن يعزل محمد على من ولاية مصر . ولكن بأية قوة ينفذ أمره ؟

توغل ابراهيم باشا فى الشام حتى فتح دمشق وحمص وواصل زحفه حتى دخل حلب . وكان أهل الشام يساعدون الجيش المصرى رغبة فى التخلص من مظالم الاتراك — وهكذا ظل ابراهيم يغزو وينتصر حتى بلغ جبال طوروس (بين سوريا والاناضول) ثم أرسل ابن أخيـه عباساً بجيش وراء جبال طوروس فاحتل أذنه بالاناضول .

وكان من هذا النصر المبين على أيدى ابراهيم وسليمان

(اللذين غدا من أبطال الحروب) بوارق الامل لمحمد على ليحقق أغراضه .

لذلك أرسل محمد على مدداً لمواصلة الغزو بهذا الجيش المصرى العظيم الذى التقى بالجيش التركى بقيادة رشيد باشا عند (قونية) فى قلب الاناضول فوقعت موقعة فاصلة تغلب فيها الجيش المصرى ورفع رأس محمد على وتشجع ابراهيم واستمر فى الزحف حتى صار على أبواب القسطنطينية .

إلى هنا وجدت روسيا سبيلا للتدخل لعلها تربح شيئاً وخشية أن يحل محمد على محل تركيا فيستطيع أن يكسر شوكتها بقوته فعرضت على تركيا أن تساعدها على محمد على .

ولكن الدول الاوروبية خشيت من تدخل روسيا أن تستظهر فى الشرق ويكون لها نفوذ فى تركيا فتستطيع أن تخرج الى البحر الابيض وفى ذلك الخطر فتدخلت الدول فى الامر بأن توسطت بين محمد على وتركيا وجعلتهما يتصالحان بمعاهدة كوتاهية (سنة ١٨٣٢م — سنة ١٢٤٨هـ) وبمقتضى هذه المعاهدة تولى محمد على سوريا وتولى ابراهيم تحصيل ولاية أذنه

ونتيجة هـذه المعاهدة أن ثبت لمحمد على ملك مصر والشام واطمأنت الدول على الشرق وأمنت جانب الروسيا

الحرب فى الشام ثانية : تولدت الحفيظة عنـد الدولة من محمد على ولم تقبل أن يكون صلح كوتاهيه حلا حاسما للنزاع بينهما واعتزمت الانتقام منه واسترداد ما فقدته من البلاد فكانت تدس الدسائس له فى الشام حتى قام أهل الشام بثورة ضد ابراهيم باشا مما جعل محمد على يذهب الى الشام ويخضعهم ولكن تركيا أعلنت الحرب عليه منتهزة فرصة طلب محمد على أن يكون حكم مصر وراثيا فى خلفه (١٨٣٩م — ١٢٥٤هـ)

تقابل الجيشان عند (نصيبين) فكانت الهزيمة المنكرة على الجيش التركى وكان محمد على موفقا فان قائد الاسطول التركى كان عدوا للصدر الأعظم خسرو باشا — فاذا به يأتى بالاسطول التركى يسلمه الى محمد على فى المياه المصريه وبذلك تفوق محمد على وأصبحت الدولة العلية فى أشد الخطر

مؤتمر لندن : ولكن الدول فزعت لهذا الحادث لأسباب منها :

(١) خشيت ازدياد قوة محمد على فى البحر الابيض

(٢) الخوف من تدخل الروسيا فى شئون الدولة العثمانية

وكانت فرنسا تعضد محمد على سراً مما جعل الروسيا وبروسيا « التى صارت المانيا فيما بعد » والنمسا وانجلترا يعقدون مؤتمر لندن سنة ١٨٤٠م وفيه اتفقوا على التدخل فى الامر بأن يلزموا محمد على بارجاع ما أخذه من البلاد الى الدولة العلية وأن يحفظ لنفسه جنوبي الشام بما في ذلك عكا واتفقت أيضاً على تنفيذ هذه الخطة بقوتها متحدة فضربت موعداً لمحمد على لقبول هذه الشروط ولما لم يذعن أعلنت الحرب عليه وحينئذ توالت انهزامات الجيش المصرى في الشام حتى سقطت عكا للاسباب الآتية :

(١) ثورة أهل الشام بتحريض الدولة

(٢) تفوق قوى الحلفاء وحصرهم الشواطىء المصرية والشاميه بحراً ومساعدتهم جيوش تركيا

(٣) عجز محمد على عن أن يمد ولده بالجيوش والذخيرة

وحينئذ اضطر محمد على أن يأمر ابنه باخلاء الشام —

وكان وزير خارجية انجلترا هو السياسى الشهير «بالمرستون» اتفق مع الدول على التوسط لدى تركيا لفض النزاع بالشروط الآتية

(١) جعل ولاية مصر وراثية فى سلالة محمد على الاكبر فالاكبر

(٢) جعل محمد على واليًا على جنوب الشام بما فيها عكا مدة حياته فقط

فصدر فرمان الدولة العليه بذلك (سنة ١٨٤١م — ١٢٥٦هـ) وهذا الفرمان جعل للجيش المصرى حدا لا يزيد عليه وهو ١٨٠٠٠ عسكرى

ويعد مؤتمر لندن من الاهميه بمكان لانه جعل لمصر مسألة دولية تقرر أمرها بموافقة الدول بعد أن كانت من شأن تركيا وحدها وحينئذ وضع الحجر الاول فى استقلال مصر عن تركيا .

آخر أيام محمد على وحكم ابراهيم باشا

على أن محمد على لم تضعف عنده فكرة الاستقلال بمصر استقلالا تاما لولا ما أصابه في آخر أيامه — فقد ضعفت قواه

العقلية بسبب هذا المجهود العنيف على مدى نحو نصف قرن من الزمان فى خدمة مصر واعلاء شأنها والعمل على استقلالها

وحينئذ تسلم ابنه ابراهيم سنة ١٨٤٨م — ١٢٦٤هـ ولاية مصر بفرمان من الدولة فى حياة والده الذى ظل فى قصر محرم بك بالاسكندرية الى أن قضى نحبه (سنة ١٨٤٩م — ١٢٦٥ هـ) فى ولاية عباس الاول ونقلت جثته الى القاهرة حيث دفنت بمسجده العظيم الذى شيده بقلعة الجبل مشرفا على عاصمة ملكه .

« ابراهيم باشا »

لم يلبث ابراهيم باشا فى الحكم الا أشهرا ومات سنة ١٨٤٨م بعد أن أضناه المرض قبل أن يموت والده

الفصل الرابع — عباس باشا الأول ابن طوسون

« ١٨٤٨م — ٥٤م ١٢٦٤هـ ١٢٧٠هـ »

تولى عباس الاول حكم مصر بعد ابراهيم باشا بفرمان من تركيا ولكنه لم يستمر فى تلك النهضة القوية التى أسسها محمد على بمعاونة ابراهيم

وترجع أسباب ذلك الى ما يأتي :

(١) لان عباساً لم يكن عنده صفات جده وعمه

(٢) لانه أحس بأثر الضعف من جراء تحديد عدد الجيش المصرى اذ أن محمد على كان قد جيش أكثر من ربع مليون جندى ولكن فرمان ١٨٤١ جعل الجيش المصرى لايزيد عن ١٨٠٠٠ فهو لايستطيع متابعة خطة محمد على

(٣) ميله الى العادات والانظمة التركية فابعد الاجانب الذين كان قد استخدمهم جده وانتفع بعلمهم وخبرتهم فى الاصلاحات

لذلك تدهورت مصر فى أيامه :

(١) فقد أغلق أكثر المدارس التى فتحها جده

(٢) وينسب اليه بعض الاعمال السيئة والمظالم بسبب من أحاطه من الرجال وبسبب عزلته عن الناس .

(٣) السكك الحديدية : أما أوروبا فقد ولت وجهها عن مصر بعد محمد على ماعدا انجلترا التى كان نفوذها بالهند قد اتسع وكان طريق رأس الرجاء الصالح طويلا ويتكلف

النفقات الكثيرة فعملت على تسهيل طريق الهند من مصر وسعت إلى ذلك حتى أنشىء فى عهد عباس خط حديدى بين الاسكندرية والقاهرة ليمتد إلى السويس وبذلك يتصل البحر الابيض بالبحر الاحمر بواسطة السكة الحديدية وهذا أول خط حديدى أنشيء فى الشرق — ابتدأ العمل فيه ١٨٥٢ م وتم ١٨٥٦ م

(٤) إلغاء المتاجرة بالمحاصيل : ولقد ألغى عباس الاول نظام المتاجرة بالمحاصيل التى نظمها جده والتى وان أجحفت بحق الفلاح ولكنها كانت مصدر ثروة كبيرة لمصر لتستطيع السير فى سياسة الانشاء والتجديد التى خطها محمد على

(٥) وفاته : قتل عباس الاول فى قصره ببنها قيل إن حراسه قتلوه وقيل إنه قتل لاسباب سياسية . وقد نقلت جثته إلى قصره بالعباسية (التى تسمت باسمه [1]) ومنه إلى مقره الاخير

---

(١) وكانت تسمى الريدانية

الفصل السادس

(سعيد باشا — ١٨٥٤ م - ١٨٦٣ م)

هو من أبناء محمد علي - وقد تربي فى فرنسا تربية عالية بحيث أثرت هذه التربية فى أعماله أيام حكمه.

تولى الحكم بعد عباس بفرمان من الدولة

هدأت الاحوال فى عهده نوعا ما وأراد السير على سياسة والده في تحسين أحوال البلاد وأبعد بطانة السوء وتولى مقاليد الحكم بنفسه ولم يشرك أحدا معه.

(١) كان مولعا بالفنون الحربية فاهتم بتنظيم الجيش بالرغم من تحديد عدده

(٢) اهتم بمد السكك الحديدية فى البلاد لتحسين المواصلات والتجارة

(٣) اهتم بحفر الترع لتوسيع الزراعة وتحسينها.

(٤) أحدث تغييرا في نظام ملكية الاراضى فأصدر في سنة ١٨٥٨ قانون الاراضى الذى قضي بتمليك الاطيان لواضعى اليد عليها فأصبح الفلاح هو

المالك الحقيقي لما يفلحه من الارض وكان لهـذا القانون أثر في تشجيع الفلاحين على تملك الارض والسعي في اصلاحها والعناية بزراعتها

(٥) أحب سعيد باشا الفرنسيين واستعان بهم في أعماله ولكن ترتب على ذلك أن نشأت في عهده مسألة حفر برزخ السويس التي كان لها تأثير كبير على حالة مصر السياسية والاستقلالية والمالية

(حفر برزخ السويس)

ترجع فكرة وصل ما بين البحر الابيض والبحر الاحمر إلى أيام الفراعنة وكانت الفكرة تعاود الدول التي تعاقبت على مصر فكانت تتحقق بحفر قناة توصل البحر الاحمر بالفرع الشرقي للنيل ولكن الرمال كانت تنهال على هذه القناة ثم تأتي دولة أخرى فتعيدها — فحفرت في أيام البطالسة وأعيدت في أيام الرومان وجددها عمرو بن العاص وأصلحت أيام الفاطميين

ولما اكتشف طريق رأس الرجاء الصالح اشتدت

حاجة أوروبا إلى فتح برزخ السويس ولكن البندقيون لم يوفقوا إذ ذاك إلى الاتفاق مع الدولة المصرية في عهد المماليك

ومازالت فرنسا بعد ذلك (فى القرن السادس عشر وبعده) تحاول فتح هذا البرزخ لتسهيل السبل لتجارتها فى الشرق ولكنها لم توفق الى الاتفاق مع الدولة العلية

ثم حالت مشاغل نابليون دون تحقيق هذه الامنية ومع ذلك فان البحث العلمى حقق مسئلة منسوب البحرين

وفى عهد محمد على أراد الفرنسيون حمله على فتح هذا البرزخ فلم يفلحوا لانه قدر سوء العاقبة

ولما كانت أيام سعيد باشا وكان (فردنند دىليسبس) صديقا حميما له نجح فى اقناعه بتحقيق الفكرة (فكرة فتح القناة) وتكونت شركة فرنسية للقيام بعمل الحفر والانفاق عليه وأصدر سعيد باشا فرمانا في سنة ١٨٥٤ م بمنح الامتياز للشركة ومن ضمن شروط هذا الامتياز

(١) مدة الامتياز ٩٩ سنة ابتداء من يوم افتتاح القناة

(ب) أن تحضر الحكومه المصريه العمال المصريين للعمل في حفر القناة نظير قيام الشركة بدفع أجورهم وكانت زهيدة

(ج) أن تستولى الحكومه على ١٥٪ من صافى أرباح الشركة

(د) أن تكون الملاحة فى القناة حرة بدون تمييز بين الدول والاشخاص

كانت الانجليز تعارض فى فتح هذه القناة مما سبب عدم اقبال الناس فى أوروبا على شراء جميع أسهم الشركة حتى بقى لديها ١٧٧٦٤٢ سهما قيمة كل سهم ٥٠٠ فرنك ـ فحسّن دى ليسبس لسعيد باشا أن يشتريها الحكومه المصريه فاشتراها وثمنها يزيد على ٣½ مليون من الجنيهات اضطر سعيد باشا أن يقترض بعضها وهذا هو أول عهد مصر بالاستدانه

لم يتم حفر القناة الا في أيام خلفه اسماعيل باشا

ويعد بعضهم حفر قناة السويس والاستدانة من الاغلاط الوطنية التي جرت على مصر التدخل الاوروبى وأصابها من الحوادث ماأصابها ؟

الباب الثاني

عصر الخديوية

الفصل الاول — اسماعيل باشا

(١٢٧٩ هـ - ١٢٩٦ هـ ١٨٦٣ م - ١٨٧٩م).

اسماعيل هو ابن ابراهيم بن محمد على . تربع على عرش مصر بعد وفات سعيد باشا وصدر له الفرمان من الدولة كالولاة السابقين

إن عصر اسماعيل يضارع عصر جده إذ نهض بمصر نهضة شملت الحياة السياسية والاقتصادية والعمرانية وهو يعد المتمم الحقيقى لاعمال جده .

أراد أن يرقى بمصر لتبلغ ما بلغته أوروبا وهو القائل عنها إن مصر جزء من أوروبا .

تولى عرش مصر وأعمال محمد على مهملة من مشروعات ومدارس وانشاء وتجديد فكانت أعمال اسماعيل عمل المنشيء المبتديء من جديد

وتتلخص أعماله فيما يأتى : —

(١) توطيد مركز العائلة المحمدية العلوية بمصر وتأييد استقلال مصر الداخلى

(٢) إنشاء المحاكم المختلطة لتخفيف وطأة الامتيازات الاجنبية

(٣) تشكيل مجلس نواب لايجاد نوع من الحياة النيابية عند المصريين

(٤) تحسين مصادر الثروة

(٥) إيجاد نهضة علمية وتوسيع نطاق التعليم

(٦) منع تجارة الرقيق

(٧) تمدين مصر

(٨) توسيع ممتلكات مصر

(٩) اتمام مشروع قناة السويس

(١٠) كان من جراء إنشاءآت اسماعيل اثقال كاهل مصر بالديون وترتب عليها حدوث مشكلة مالية كانت سببا في تدخل الاجانب فى شؤون مصر .

(١) لقب الخديوية والاستقلال الداخلي

أراد اسماعيل حصر وراثه العرش في أكبر أنجاله حتى لا تحصل فتن بين أفراد أسرة محمد على على عرش مصر . فسعى الى ذلك ببذل المال الى رجال الدولة واستفاد من الاحتفالات الفخمة التي استقبل بها السلطان عبدالعزيز عند ماحضر مصر حتى صدر فرمان الدولة سنة ١٨٦٦م بجعل الوراثة في أكبر أنجال اسماعيل وبجعل الجزية ٦٠٠٠٠٠ جنيه سنويا

(٢) سعى أيضا حتى صدر فرمان الدولة سنة ١٨٦٧م بمنحه لقب خديوى وهو لقب أرقى من الباشا وبذلك صارت مصر من الولايات الممتازة .

(٣) وسعى أيضا الى توطيد استقلال مصر الداخلي ليستطيع النهوض بها وجعلها تحاكى دول أوروبا فحصل على فرمان سنة ١٨٧٣م باستقلال الخديوى استقلالا تاماً بشؤون مصر الداخلية وأذن له باقتراض الديون وعقد المحالفات التجارية وزيادة عدد الجيش

كما يرى وفي نظير ذلك صارت الجـزية ٦٦٥٠٠٠ جنيه سنويا

(٢) انشاء المحاكم المختلطة

ترجع الامتيازات الاجنبية الى المعاهدات والاتفاقات التى عقـدها الايوبيون والمماليك وآل عثمان مع دول أوروبا فى أوقات وظروف مختلفة — وهـذه الامتيازات منحت للرعايا الاجانب الذين يهبطون أرض مصر من التجار وغيرهم تشجيعاً لهم حتى تروج التجارة بين الشرق والغرب

قضت هـذه الامتيازات فى جملتها أن يكون الفصل فى المنازعات المتعلقة بأحوال هؤلاء الاجانب الشخصيـة وبمعاملاتهـم التجارية والمدنية وفيما يقع منهم من مخالفات وجرائم الى قنصلياتهـم . فكان كل نزاع بين الاجانب والوطنيين يرجع الفصل فيه الى القنصليات الاجنبية وليس الى المحاكم الشرعية المصرية التى كانت موجودة إذ ذاك ولا الى جهة الادارة المصرية الحاكمـة

الا أن أيام الفوضى الـتى مرت على مصر في ظروف

مختلفة جعات الاجانب والقنصليات يسيئون استعمال هذه الامتيازات فعبثوا بحقوق المصريين فى المعاملات المدنية والتجارية حتى خرجوا على العدالة واتخذوا من أحتمائهم في الامتيازات سبيلا للعبث بالامن العام فتكررت اعتداءاتهم على المصريين خصوصا الاشرار الكثيرين الذين كانوا يتسربون من بلادهم إلى مصر.

أراد اسماعيل أن تكون أولى اصلاحاته وضع حد لهذه الفوضى وتلك الاعتداءات ولسلطة القنصليات وتخفيف وطأة هذه الامتيازات بتوحيد النظام القضائى للمصريين والاجانب ان استطاع.

واصل اسماعيل سعيه لدى الباب العالى والدول الاجنبية صاحبات الامتيازات (١) وأجرى معها المفاوضات وتبادل المذكرات وكان عونه فى هذه المهمة وزيره القادر نوبار باشا

---

(١) الدول صاحبات الامتيازات بمصر هى بريطانيا العظمى وفرنسا وايطاليا وبلجيكا وهولندا والسويد والنرويج واسبانيا والبرتغال والدانمركه والولايات المتحدة (والمانيا قبل الحرب ثم وضعت اتفاقية سنة ١٩٢٥ بينها وبين مصر نظمت طرق محاكمة رعاياها)

حتى اتفق مع هذه الدول على انشاء المحاكم المختلطة فانشئت سنة ١٨٧٥ م وابتدأت العمل سنة ١٨٧٦ م

وهذه المحاكم تفصل في القضايا المدنية والمعاملات التجارية وفي بعض المخالفات والجنح بين الاجانب أو بينهم وبين الوطنيين — وبقيت محاكمة الاجانب جنائيا والفصل فى أحوالهم الشخصية أمام قنصلياتهم (١)

(٣) تشكيل مجلس نواب

كان مجلس المشورة الذى أنشأه محمد على قد تعطل فى

---

(١) ويجب ان نلاحظ ان الامتيازات الاجنبيه زالت من الدول الشرقيه كلها ولم يبق لها اثر الا فى مصر وأصبح بقاؤها حجر عثرة فى كثير من الاصلاحات المرغوب في إنشائها بمصر فى الوقت الحاضر كما أنها لا تحقق مبدأ المساواة والعدالة بين من تظلهم سماء مصر الصافيه فضلا عن انها هادمة لركن من اركان استقلال البلاد ولذلك فان مصر جادة في العمل على الغاء هذه الامتيازات أو على الاقل الحد من سلطتها حدا يتفق مع تقدم مصر ورقي أهلها وتمتع الاجانب بالامن والطمأنينه فى وسط شعب هاديء وديع وفي ظل حكومة منظمة دستورية

آخر أيامه — وكانت النظم النيابية قد راجت فى القرن التاسع عشر فى أوروبا . فاراد اسماعيل أن يجعل لمصر حظا من الحياة النيابية الجديدة التى تجعل السلطة العامة فى الدولة بيد الامة ممثلة فى مجلس مكون من نواب ينتخبهم الشعب

أصدر اسماعيل أمره فى سنة ١٨٦٦ بانشاء مجلس نيابي عرف باسم « مجلس شورى النواب » — تنتخب أعضاؤه من المدن الكبيرة والاقاليم وكان عددهم خمسة وسبعين عضوا

أما اختصاصه فكانت المداولة فى المشروعات التى ترى الحكومة عرضها عليه وقد اشتغل هذا المجلس طول مدة حكم اسماعيل فتدرب المصريون على الحياة النيابية فكانت غرسا صالحا تعلق به المصريون وتشبثوا باهدابه حرصا على مصلحة بلادهم — وظل قبلة أمانيهم حتى انه لما أريد طمس هذه الحياة النيابية بعد اسماعيل كان ذلك من أهم الاسباب فى اشتعال نار الثورة العرابية

(٤) تحسين مصادر الثروة

نهض اسماعيل بمصر نهضة كبيرة فى الصناعة والزراعة

والتجارة وتحسين سبل المواصلات مما عاد على البلاد بالثروة الكبيرة ويلاحظ أنه أنفق على هذه الاصلاحات أموالا طائلة :

الصناعة : لم يغب عن اسماعيل ما للصناعة وانتشارها من أثر فى تقدم البلاد ورفاهيتها فاهتم بانشاء معامل السكر وتكريره وأعاد مصانع النسيج والدباغة والزجاج والفخار ومعامل الورق وغير ذلك

الزراعة : وجه اسماعيل عنايته الى اصلاح كثير من الاراضى الزراعية فنظم سبل الرى بحفر الترع والمصارف وتشييد القناطر على الترع لحجز المياه ورفع منسوبها بلغت نحو ٥٠٠ قنطرة . حتى انصلح فى عهده نحو مليون ونصف من الافدنة من الاطيان البور التى كانت لاتصلها مياه الرى أو تزرع مرة واحدة فى السنة — من ذلك انه أنشأ ترعة الاسماعيلية وترعة الابراهيمية بالوجه القبلى التى امتدت في وسط مساحات واسعة من الاطيان بمديريات أسيوط والمنيا وبنى سويف زرع بها قصب السكر

ووجه عنايته أيضا لتحسين الزراعة وادخال أنواع

جديدة من المزروعات وفى عهـده ارتفع ثمن القطن ارتفاعا عظيما فشجع على الاكثار من زراعتـه مما عاد على البـلاد بالاموال الطائلة

كما انه اهتم بزراعة قصب السكر فى الوجه القبلى وأنشأ له المعامل لعمل السكر فكانت مصدر ثروة لايستهان بها

التجارة : اهتم اسماعيل أيضاً بتحسين المرافق للتجارة وتسهيل سبلها وعمل على تنشيطها وترويج التجارة الاوروبية فبنى نحو ١٥ منارة على السواحل المصرية فى البحر الابيض والاحمر لهداية السفن التجارية وأصلح ميناء الاسكندرية وميناء السويس لتكون كل منهما مستعدة لرسو السفن التجارية الكبيرة كما نظم الحركة فى الموانىء المصرية

ويذكر من حسانته انشاؤه أسطولا تجاريا لحمل المتاجر والبريد المصرية من السواحل المصرية فى البحرين الابيض والاحمر الى الموانىء الشرقية والغربية

وفى عهده انشئت كثير من الشركات التجارية المهمة

طرق المواصلات : نظم طرق المواصلات ووسعها من طرق زراعية وسكك حديدية وبرق وبريد

شق كثيرا من الطرق الزراعية في الوجه البحرى والوجه القبلى فأفادت فى تسهيل نقل المحاصيل وراجت التجارة الداخلية الاقليمية

أما السكك الحديدية فكانت الى أول عهده قليله لا تزيد عن ٣٣٠ ميلا فانشىء فى عهده نحو الف ميل من الخطوط الحديدية فى الوجه البحرى والوجه القبلى .

ففى الوجه البحرى أنشأ الخطوط من الاسكندرية الى رشيد ومن طنطا الى دسوق والى دمياط والى شبين الكوم ومن الزقازيق الى الاسماعيلية الخ

وفى الوجه القبلى من بولاق الدكرور الى أسيوط ومن الواسطى الى الفيوم الخ

كما أنه أصلح ادارة السكة الحديدية فانتظمت مواعيد القطارات وشعر المسافرون بالنظام والراحة وبنى المحطات والمظلات

كما أنه شيد كثيرا من الكبارى لتمر عليها الخطوط الحديدية

وكان من مشروعاته أن يمد خطاً حديديا يخترق السودان وأواسط أفريقية للحصول على ثروة طائلة من هذه الجهات ويثبت نفوذه على منابع النيل والاقاليم القريبة منه — لكن أعوزه المال لهذا المشروع الجليل

كان سعيد باشا قد مد من خطوط البرق شيئاً يسيرا — ولكن اسماعيل مد نحو ٥٥٠٠ ميلا فى مدة وجيزة فامتدت الخطوط البرقية بين العاصمة ومعظم بلاد القطر فى الوجهين البحرى والقبلى كما انها امتدت بين مصر وعواصم السودان الشهيرة

كان البريد الرسمى فى عهد محمد على وعباس وسعيد يحمل بواسطة سعاة براً وفى السفن بحرا — ثم جاء رجل إيطالى وأنشأ مكاتب للبريد فى مصر والاسكندرية تنقل البريد نظير أجور معينة وبواسطة مستخدمين لحسابه فوجد اسماعيل أن مثل هذه المهمة (مهمة البريد) يجب العناية بها بواسطة الحكومة فاشترى هذه المصلحة من صاحبها الايطالى ونظمها ووسعها حتى صارت تحاكى أحسن مصالح البريد

في أوروبا فاستفادت البلاد منها فوائد كبيرة عادت على التجارة والزراعة والاعمال جميعها بالخير

(٥) النهضة العلمية وتوسيع نطاق التعليم

عمل اسماعيل على جعل مصر في صف الامم الاوروبية ثقافيا كما عمل على محو الامية من البلاد ما استطاع وقد عاونه فى اعماله بالمعارف من الوزراء امثال على مبارك باشا الذين نشطوا نشاطا كبيرا فى ايجاد نهضة علميه نافعة تاخذ من العلوم الاوروبيه با كبر قسط

وضع فى عهده سنة ١٨٦٧ قانون عن خطط ومناهج التعليم كان اول قانون وضع من نوعه فى مصر . فاوجد وحدة تعليمية ونظم خطط الدراسه على مختلف درجاتها وكان سببا في ازدياد حركة التعليم وتوسيع نطاقها

وقد اسس من المدارس نحو ٤٨٠٠ مدرسه يدرس فيها نحو ١٤٠ الف تلميذاً عدا التلاميذ الذين يدرسون في الازهر والمدارس الاجنبيه والخصوصية والمدارس العاليه والمدارس التابعه لوزارة الاوقاف ومدارس الجيش

تأسس في عهده من المدارس العاليه والخصوصية مدرسة الحقوق ومدرسة اللغة المصريه القديمة ومدرسة المعلمين ومدرسة دار العلوم وادخل تحسينات على مدرسة الطب ومدرسة الهندسة

ويذكر له بالفضل عنايته بتعليم البنات اذ تأسس فى عهده مدرسة لتعليمهن وهى أول مدرسة للبنات فتحت فى الشرق

وله أياد بيضاء على تأسيس النهضة العلمية فهو منشىء دار الكتب المصرية التى جمع فيها الكتب القيمة العربية التى كانت مبعثرة فى المساجد وفى انحاء البلاد حتى صارت تعد من أعظم مكاتب العالم لما حوته من نفائس الكتب المخطوطة والمطبوعة

وقد عضد علماء الآثار فاحل (مَرْيِتْ باشا) محلا من الاعتبار وأسس دارا للآثار المصرية القديمة أودع بها آثار الفراعنة وحوفظ عليها من التسرب للخارج

(٦) منع تجارة الرقيق

كانت تجارة الرقيق منتشرة فى الشرق وبعض ممالك أوروبا الشرقية في العصور الوسطى . لكنهازالت من اوروبا فى العصور الحديثه . تلك التجارة الدنيئة التى تتنافى مع الحرية الشخصية ولا تتفق مع مبادىء العدل وحب الانسانية . اذ كيف يستعبد الانسان اخاه الانسان وقد خلق الله الناس أحرارا لافرق بين الابيض والاسود ولا بين ساكن الشمال وساكن الجنوب فضلا عن ان الشرائع السماوية حثت على المساواة بين الناس جميعا — ولم يبح الدين الاسلامى الرق إلا لاسرى الحرب وبشروط مخصوصة وفضلا عن انه جعل للعتق ثوابا كبيرا

كانت تجارة الرقيق مازالت منتشرة في البلاد الشرقية فكان النخاسون (تجار الرقيق) يتصيدون العبيد أطفالا وشبانا وكبارا رجالا ونساء يختطفونهم من بلادهم ويبيعونهم فى أسواق مصر وبلاد العرب وغيرها بيع السلع كما ان بعض

النخاسين كانوا يجلبون رقيقا من بلاد القوقاز بطرق مختلفة ويبيعونهم ايضا كبيع السود وكانت حكومات أوروبا تعقد المؤتمرات للعمل على منع تجارة الرقيق

رأى اسماعيل ان من الكرامة والرحمة ان يجارى أوروبا فى خدمة الانسانية والعمل على نشر الحرية والمساواة بالضرب على هذه المهنة ـ مهنة النخاسة ـ بيد من حديد فعهد الى أحد الرحالة الانجليز وهو « السير صموئيل بيكر » فى قطع دابر هذه الحرفة من بلاد السودان فقام السير صموئيل بيكر برحلة فى السودان وتجول فى أقاصيه يضيق الخناق على تجارة الرقيق (١) ثم أعقبه «غوردون باشا» أحد القواد الانجليز فى هذه المهمة فنجح فى قطع دابر هؤلاء التجار

وتوج اسماعيل خدمة الانسانية والحرية بان أمضى فى سنتى ١٨٧٧ م و ١٨٧٨ معاهدتين مع بريطانيا العظمى لمنع تجارة الرقيق

---

(١) كان السير صموئيل بيكر فى تجولاته فى السودان يكتشف منابع النيل

ويعد اسماعيل أول شرقي لبّى نداء الانسانية وأقام منار الحرية بعمله هذا

(٧) تمدين مصر

بذل اسماعيل مجهودا كبيراً وأموالا طائلة لايجاد مظاهر المدنية الاوروبية في المدن المصرية وخلق بيئة متمدينة على النمط الاوروبي :

(١) كانت المدن الكبيرة (العاصمة والاسكندرية والسويس وغيرها) ضيقة الشوارع كثيرة الازقة تلقى بها الاوساخ وكان الانسان لا يسرح الطرف بميدان فسيح او متنزه جميل وكانت الناس تسقى من الآبار او تحمل اليهم المياه من النيل (فى القاهرة) مع مافيها من أوساخ . وقلما يقع نظرك على بناء فخم أو عمارة ضخمة (اللهم الا المساجد الاثرية المشيدة) وغير ذلك من مظاهر الانحطاط

نظم اسماعيل المدن المهمة فوسع شوارعها وخطط أحياء جديدة لتوسيع المدن وأنشأ بها الميادين التي زينها بالتماثيل (١)

---

(١) تمثال محمد علي بالاسكندرية وتمثال ابراهيم باشا بمصر وغيرها

والمتنزهات (كجنينة الازبكية بالقاهرة) وغرس الاشجار على جانبي الشوارع . وانيرت العاصمة والاسكندرية بمصابيح الغاز ومدت أنابيب المياه المرشحة (الحنفيات) — كما انه نظم الاحوال الصحية

وقد شجع على تشييد العمائر والمبانى الضخمة على الطريقة الاوروبية . وأقام من المبانى الحكومة ومن القصور العمائر العظيمة لتكون نماذج يحتذى بها أهل اليسار

شيد قصر عابدين ليكون قصر الحكم بالعاصمة فضارع فى عظمته وأبهته أعظم القصور من نوعه فى عواصم أوروبا — كما أنه شيد قصر رأس التين بالاسكندرية — وناهيك بالقصور الفخمة كالقصر العالى وقصر الجيزة وقصر الجزيرة التى نسقت بها الحدائق الجميلة

(٢) كانت قصور اسماعيل مسارح للرفاهية وأيام السعود واقامة الحفلات . فشهد المصريون فى أيامه ايام افراح وسرور

ناهيك بافراح الانجال التى أقام لها ابدع الزينات

وأبهج الحفلات وكم نقل الى مصر عن أوروبا مظاهر الرفاهية والعز حتى لفت المصريين الى تلك المظاهر فتطلعوا اليها وتعاموا إقامة الافراح والزينات على نمط لم يعهدوه من قبل

وكان لهذا التطور ولهذه المظاهر وما تستلزمها من فنون جميلة أثر واضح فارتقت الموسيقى والاغانى ووجد التمثيل بانشاء (الاوبرا) وعرف التصوير وظهر من المصريين نوابغ تعلقوا بهذه الفنون فابدعوا فيها ابداعا

وعلى العموم فعهد اسماعيل أفسح المجال للمصريين للنزوع إلى مظاهر جديدة من مظاهر الرفاهية والتمدن

(٨) توسيع ممتلكات مصر
وحروب اسماعيل

اقتفى اسماعيل أثر جده محمد على فى تجييش الجيوش وتدريبها على النظام الاوروبى . فوسع المدارس الحربية وجيش جيشا يربوا على ١٢٠ الف مقاتل وسلحه بالمدافع وجلب له الضباط الاجانب فكان جيشا عظيما يليق بمصر

وما كان يحمله اسماعيل بين جنبيه من آمال كبار لعظمة مصر واستقلالها

كان من آمال اسماعيل توسيع المملكة المصرية من الجنوب والسيطرة على منابع النيل

(١) التوغل فى السودان : أرسل الحملات الحربيه بقيادة السير صموئيل بيكر ثم بقيادة غردون باشا وغيرهما ومع هذه الحملات من الضباط والقواد الوطنيين الابطال فتوغلت هذه الحملات فى السودان حتى بلغت خط الاستواء وبسطت نفوذ الحكومة المصرية على إقليم خط الاستواء

وكانت دارفور بلادا مستقلة ففتحت وصارت تابعة لمصر

وأرسلت حملات حربية أخرى بقيادة رؤوف باشا وغيره ففتحت زيلع وهرر والصومال وبلغت حدود زنجبار

وبالجملة فقد امتدت المملكة المصرية في عهد اسماعيل الى أواسط أفريقية فاطمأنت على السودان ومنابع النيل مصدر حياة مصر

(٢) حرب الحبشة : لما اتسع ملك اسماعيل فى السودان كان

لابد من حماية حدود هذا الملك الواسع فكانت القوات المصرية تتوغل فى السودان عند حدود الحبشه . فخشى النجاشى (لقب ملك الحبشة) من اغارة الجيوش المصرية على بلاده فتحرش بمصر حتى وقع نزاع على الحدود بين السودان المصرى والحبشه . فأرسل اسماعيل باشا حملة عسكرية بقصد تعيين الحدود بن البلادين فهوجمت هذه الحملة بالقوات الحبشية وتمكنت من القضاء على الحملة المصرية

اهتم اسماعيل لهذا الامر وأراد الضرب على أيدى الاحباش ليأمن حدود ملكه بما يتفق مع سمعة مصر الحربية التى نالتها فى أيام جده . فجهز جيشا كبيرا وجعل على قيادته العايارا تب باشا (السردار) ومعه الامير حسن بن اسماعيل . وبعد عدة معارك ومناوشات تمكنت مع الاسف جيوش الاحباش من تشتيت الجيوش المصرية والفتك بها

وكان لابد من الصلح فوقع الصلح بين مصر والحبشه وانتهت الحرب سنه ١٨٧٦ م

(٩) قناة السويس

كان الامتياز الذى [illegible] سعيد باشا الى شركة قناة السويس مجحفا بحقوق مصر بسبب الامتيازات الباهظة التى خولت للشركة والتى منها

(١) ملزومية الحكومة بتقديم العمال المصريين ولو بلغ عددهم عشرين الفا باجور بسيطة تدفعها الشركة

(٢) تمليك الشركة لترع المياه العذبة التى تستمد مياهها من النيل التى تحفرها الشركة من الزقازيق الى الاسماعلية وعلى طول القناة من الجهة الغربية وايضا كافة الاطيان التى تروى من هذه الترع

وغير ذلك من امتيازات جعلت الشركة اشبه شىء بحكومة مستقلة على جزء من ارض الديار المصرية

لما ارتقى اسماعيل عرش مصر راعته هذه الحالة فعزم على ان يسترد لمصر حقوقها وان يعمل ما فى وسعه لجعل القناة مصرية فاستغل عدم رضاء بريطانيا العظمى على المشروع وعدم صدور فرمان الموافقة من الدولة العلية وأوفد نوبار باشا الى

الاستانة وعواصم وأوروبا لنشر الدعوة والسعى وراء تخفيف امتيازات الشركة ورد حقوق مصر اليها مظهرا استعداده لاخذ العمل على عاتقه وإلاّ وجب ان يحبط المشروع فكان ذلك من المشقة الكبيرة على نفس « دليسبس » حتى شرع يناهض نوبار باشا فى مأموريته بكل الوسائل حرصاً منه على اتمام مشروع تعب فى تحقيقه بعد أن كان حلما من الاحلام فكان النضال بين نوبار ودليسبس شديدا الاول مستمدا المعونة من اسماعيل والثاني معتمدا على تعضيد فرنسا وامبراطورها نابليون الثالث اذ ذاك

تطورت الاحوال حتى ارتضت الشركة واسماعيل أن يكون نابليون الثالث حكما بينهما فأصدر حكمه الذى قضى :

(١) بابطال ملزومية الحكومة بتقديم العمال المصريين

(٢) وبتخلى الشركة عن الترع والاراضي للحكومة المصرية

(٣) وفى نظير ذلك تدفع الحكومة المصرية للشركة ثلاثة ملايين ونصف مليون من الجنيهات بصفة تعويض

وحينئذ فاز اسماعيل ببعض أغراضه الذى رمى اليها

ولكنه بثمن كبير . إذ أنه فضلا عن مبلغ التعويض فقد صرف المبالغ الطائلة فى سبيل الوصول الى غرضه

وقد عملت التسوية النهائية مع الشركة فى سنة ١٨٦٩ على أساس الحكم كما أن الشركة تنازلت عن بعض حقوق أخرى نظير تعويضات حتى بلغ جملة ما انفقته مصر على قناة السويس (من ثمن اسهم ومصاريف وتعويضات وفوائد) ستة عشر مليون من الجنيهات بما فى ذلك مصاريف حفلة الافتتاح

حفلة الافتتاح : كانت القناة قد تم العمل فيها سنة ١٨٦٩ فأعد اسماعيل حفلة لافتتاحها تعد من اعظم حفلات التاريخ أبهة واستعدادا . دعا اليها عددا من ملوك اوروبا وامرائها وعظمائها فلبى الدعوة عدد عظيم منهم في مقدمتهم الامبراطورة « أوچينى » زوجة امبراطور فرنسا وقد أبدع فى الزينات التى نسقها والمنشآت التى اقامها لمناسبة هذا الاحتفال ما انفق عليه الاموال الطائلة وكان غرضه من ذلك رفع قدر مصر فى أعين الاوروبيين . زد على هذا اهتمامه بان يتم فى عهده أكبر مشروع دولى فى القرن التاسع

عشر يقرن باسم اسماعيل فى التاريخ

افتتحت القناة بدخول المراكب المزينة ابدع زينة تحمل الزائرين من بورسعيد وسارت فى القناة السويس وعلى جانبيها اقيمت الزينات الفخمه الى الاسماعيليه وكان قد شيد اسماعيل قصرا بها اقيمت فيه حفلة راقصة واظهر اسماعيل من آيات الكرم ما اثار اعجابهم وكان لهذه الزينات البديعه ومظاهر البذخ أعمق تأثير عندهم كما انه انشأ طريق الاهرام فى شهر ونصف خصيصا لمناسبة حضور الزائرين لمشاهدة اثارات الفراعنه واحدى عجائب الدنيا (الاهرام) وشيد «الاوبرا» دار التمثيل لمناسبة هـذا الاحتفال وبها ادخل التمثيل فى مصر وكان غير معروف

قضت الضيوف نحو شهرين على نفقة مصر حتى بلغ ما انفق على هذه الحفلة نحو مليون ونصف مليون من الجنيهات وكان هذا الافتتاح في نوفمبر سـنة ١٨٦٩ ابتداء ال ٩٩ سنة مدة امتياز الشركة

ومع ما انفقته مصر على هذه القناة كما رأيت فانها كانت وما

زالت شراً على البلاد واستقلالها بما جرته عليها من تدخل الدول الاوروبيه فى شئونها ثم الاحتلال البريطاني الذى تعانى البلاد فى سبيل اجلائه الصعوبات والمشاق

(١٠) المشكلة المالية

انفق اسماعيل كثيرا فى التخلص من قيود السيادة العثمانية وفى وجوه الاصلاح (كالسكك الحديدية وشق الترع واصلاح الاطيان) وفى تمدين مصر (من منشآت ومبان) وفى مد فتوحاته بالسودان وحرب الحبشة وفى السعى لانشاء المحاكم المختلطه وفى اتمام حفر قناة السويس وحفلة افتتاحها

كان دخل الحكومة في عصر اسماعيل يتراوح بين ٦ و ٩ ملايين من الجنيهات سنويا وهو دخل لا يكفى لنفقات هذه النهضه الكبيرة التى ارادها اسماعيل لمصر. فلم يكن بد من فرض الضرائب المختلفة على الاهلين والاستدانه وقد أعانه اسماعيل صديق باشا المعروف بالمفتش الذى اشتهر بضروب الحيل في فرض الضرائب واقتراض الصفقات المالية من البيوت والبنوك المالية فى مصر واوروبا :

فرض من الضرائب ما اثقل كاهل الاهالى فمثلا فرض ضرائب على (١) معاصر الزيت (٢) معامل الزجاج (٢) الاغنام والمواشى (٣) العربات (٤) الاشخاص : الفردة والويركو (٥) الدخوليات : وهي ضريبة تجبى على كافة الاشياء التى تدخل المدن والبنادر من مواد غذائية وغيره (٦) ضريبة المقابلة وهى ان كل مالك يدفع عن اطيانه قيمة ضريبة ستة اعوام مقدما في مقابل اعفائه على الدوام من نصف الضريبة السنوية وهى مجحفة جدا بالحكومة

وقد عقد قروضا مختلفة فى بحر العشر سنوات الاولى من حكمه بفوايد باهظة تختلف بين ٧ ٪ و ١١ ٪ وهذه القروض تسمى بالديون الثابتة لانها تؤخذ لمدد معينة وتحت ضمانات معينة كايراد بعض المصالح وبعض المديريات

وكانت هناك ديون أخرى تسمى بالديون السائرة وهى الاموال والبواقى المستحقة للمقاولين والمتعهدين الذين قاموا بالمنشآت المختلفة أو باعوا لوازم الحكومة

شبح الازمة : لم تأت سنة ١٨٧٣ حتى ظهر في الافق شبح

الازمة فاراد عقد قرض قيمة ٣٢ مليون جنيه لسداد الدين السائر فلم يتم الا في سنة ١٨٧٤ ومع ذلك فان ما قبضه نقداً لم يتجاوز ١١ مليون جنيه أما الباقي فكانت سندات على الخزينة ومصاريف وسمسرة وفوايد . ولم يتمكن من سداد شيء من ديونه

وحينئذ بحث اسماعيل عن موارد أخرى للمال فباع أسهم قناة السويس للحكومة الانجليزية في سنة ١٨٧٥ بمبلغ ٤ مليون جنيه لم يكن لها أى أثر في تفريج الحالة

وأصبحت الديون تربو على ٩٠ مليون جنيه وكانت بوادر الازمة عجزه عن صرف بعض السندات التي استحقت في ابريل سنة ١٨٧٦ مما ذعرت منه الدول

صندوق الدين: ولاجل أن يدرأ اسماعيل تدخل الدول في المسألة أصدر أمره بانشاء لجنة سميت صندوق الدين تؤلف من مندوبين عن الدائنين ومهمتها إدارة شئون الدين وتسديد فوائده وأقساطه من ايرادات تخصصت له وهى ايرادات

السكة الحديد والجمارك ومديريات المنوفيه والغربيه والبحيرة وأسيوط

المراقبة الثنائية : لم تطمئن كل من انجلترا وفرنسا على الحالة ورأت أن صندوق الدين ليس ضمانا كافيا لاموال رعاياها فأرسلت كل منها مندوبا ليفحصا الحالة وتقديم اقتراحات للاصلاح . فاقترحا تعيين مراقبين أجنبيين لحسابات الحكومة بالمالية فعينهما اسماعيل أحدهما انجليزى لمراقبة الايرادات والثانى فرنسى لمراقبة المصروفات . وكانت المراقبة الثنائية هذه خطوة خطرة للتدخل الاجنبى حتى أن اسماعيل باشا أوجس خيفة من استفحال تدخل الدول فلم يطلق للمراقبين حرية العمل

لجنة التحقيق . وبالرغم من هذا فقد ظهر عجز الخزينة مرة أخرى سنة ١٨٧٧ عن دفع أرباح وأقساط الديون في مواعيدها فطلب صندوق الدين تعيين لجنة لتسوية المشكلة المالية وبعد تمنع من اسماعيل باشا أصدر أمره فى ١٨٧٨ بتشكيل لجنة التحقيق من أعضاء عن الدول ومعهم عضو مصرى كان رياض باشا

بحثت اللجنة الحالة فوجدت ان للازمة أسباب منها(١).
تفرد اسماعيل بكل سلطة على شئون البلاد وحكمها (٢).
الاسراف(٣)الاتفاق على مقاولات وتعهدات بمبالغ باهظة الخ
واقترحت اللجنة (١) ان يشرك الخديو معه في الحكم وزارة
مسئولة(١) (٢)أن يتنازل الخديو عن أملاكه للحكومة

عين اسماعيل وزارة مسئولة برئاسة نوبار باشا وتعين
من ضمن الوزراء وزيران أجنبيان أحدهما انجليزى والثانى
فرنسي وهذا من أكبر مظاهر التدخل الاجنبي . كما أنه تنازل
عن أملاكه للحكومه

بريق الثورة في الافق : تخلي اسماعيل عن معاونة الوزارة. وكان
لسوء الحالة المالية قـد تأخرت الحكومة عن دفع مرتبات
الجند . واذا بهم يتجمهرون امام المالية ثم يهينون رئيس
الوزارة والوزير الانجليزى ولم ينصرفوا الا بحضور الخديو

(١) كان المجلس المخصوص الذى أنشأه محمد على يشبه من بعض الوجوه
مجلس وزراء وكان قد تعطل بانتهاء حكم محمد على فاعاده اسماعيل
باشا وناط به فحص جميع المشروعات التى يريد القيام بها لكن اسماعيل
في الواقع كان صاحب النفوذ والسلطة المطلقتين عليه

شخصيا وأمرهلهم بالانصراف فدلت هذه الثورة على يقظة الرأى العام وعلى أنه ناقم على التدخل الاجنبى

أقال نوبار باشا من الوزارة وعين ولى العهد محمد توفيق باشـا رئيسا للوزارة مع بقاء الوزيرين الاجنبيين ومع ذلك فان الخلل المـالى كان قد استفحل أمره وظهر أن التدخل الاجنبى لم يفد شيئاً

كل هذه الحوادث جرت واسماعيل على مضض منها فأوعز الى العلماء والاعيان وأعضاء مجلس شورى النواب أن يقدموا العرائض بعدم رضائهم عن الحالة والمطالبة بتشكيل وزارة وطنية تكون مسئولة أمام مجلس النواب مع وضع دستور جديد ينظم هذه المسئولية

فعزل الخديوى وزارة توفيق باشا وعين وزارة وطنية بحتة برياسة شريف باشا بدون الوزيرين الاجنبيين . وابتدأت الوزارة تضع الدستور الجديد

هال الدول هذا التغيير واعتبرت ان عمل تسويه لحفظ

حقوق رعاياها أصبح مستحيلا مادام اسماعيل باشـا متربعا في دست الحكم . وأمام رفض التدخل الاجنبي مع وضع دستور جديد يحقق مسئولية الوزارة أمام مجلس النواب . حتى أن لجنة التحقيق استقالت

عزل اسماعيل: استعملت الدول نفوذها وتهديدها لدى الباب العالى حتى صدر الفرمان في ٢٦ يونيه ١٨٧٩ بعزل اسماعيل باشا وتعين توفيق باشا خديوى مصر فتولى العرش والمسألة المالية لم تحل بعد

لم يبد اسماعيل مقاومة وغادر مصر الى ايطاليا ثم انتقل الى تركيا وبقى فيها الى أن مات سنة ١٨٩٥ ونقلت رفاته الى مصر حيث دفنت في مقرها الاخير وراء جامع الرفاعى

الفصل الثانى — توفيق باشا

١٢٩٦ هـ — ١٣٠٩ هـ ؟ ١٨٧٩ م — ١٨٩٢م

تولى توفيق باشا أريكة مصر فى ظروف حرجة إذ كانت تحيط بالبلاد الازمات المختلفة بجانب خلو الخزينة فضلا عن السخط الذى خالج المصريين بسبب الضرائب وعزل

اسماعيل في جو كان قد تلبد آبغيوم الثورة وخالج ايضا الاوربيين لخوفهم على أموالهم

كان توفيق باشا طيب القلب تنقصه الارادة الحديدية والدهاء الحازم. وكان يرغب أشد الرغبة فى اصلاح الاحوال والاخذ بيد البلاد الى الامن والسلام والنظام. لكن الحوادث والظروف كانت فوق طاقته فلم يوفق الى ما أراد من خير وتغالبت الحوادث فلم تمض سنة وبعض السنة حتى انتفضت البلاد بثورة عسكرية انتهت بالاحتلال البريطانى المشئوم

(١) علاقة مصر بالدولة العلية

كانت أولى المشاكل التى اعترضت توفيق باشا مابدا من ميل الدولة العلية الى الغاء الامتيازات التى منحتها الى اسماعيل باشا بفرمان سنة ١٨٧٣م. تلك الامتيازات التى تنحصر فى (١) وراثة العرش لاكبر الابناء (٢) تخويل مصر حق عقد المعاهدات التجاريه (٣) تخويل الخديوى حق اقتراض المال (٤) زيادة عدد الجيش الى أى حد — لكن فرنسا وانجلترا عارضتا تركيا في إلغاء هذه الامتيازات وبعد مفاوضات

جاء فرمان الباب العالى بتعيين توفيق باشا خديو مصر مع تعديل فى الامتيازين (٣)و(٤) فقط فاشترط الا نعقدقروض جديدة الا للتسوية الديون والا نزيد عدد الجيش عن ١٨٠٠٠ عسكرى

(٢) نظام الحكم في مصر

عول توفيق باشا على تعيين وزارة وطنية تشترك معه في الحكم فشكل وزارة برئاسة شريف باشا (بدون وزراء أجانب) وكان شريف باشا قد أتم وضع الدستور الجديد لتنظيم الحكم النيابى ووزارة مسئولة أمام المجلس. وقد كان ذلك من أمانى المصريين بعد أن خبروا فائدة النظام النيابى في عهد اسماعيل . لكن الخديوى لم يوافق على مشروع الدستور معتقداً أنه لا يصح أن تنتقل البلاد طفرة من نظام حكومة مطلقة الى نظام الحكم النيابى بأبعد مدى في الحرية لان الامة لم تنضج لهذا بعد . فكان هذا الرفض من أقوى عوامل تألب الرأي العام المصرى

وعلى أثر هذا الرفض استقال شريف باشا مما جعل

الخديوى يرأس مجلس الوزراء بنفسه ثم شكل وزارة برئاسة رياض باشا وترك لها الحرية الكافية للعمل

(٣) تسوية المشكلة الماليه

جرّت المشكلة المالية التدخل الاوربى ثم عزل اسماعيل وحينئذ فأمام الخديوى الجديد مشكلتان يجب الفصل فيهما

(١) فاما التدخل الاجنبي فقد اتفق على اعادة المراقبة الثنائية . وعين المراقبين الانجليزى والفرنسى (فى نوفمبر سنة ١٨٧٩) اللذين أخذا فى اجراء اصلاحات هامة . حتي أذن لهما بحضور مجلس الوزراء وهى ظاهرة من ظواهر التدخل الاجنبي العميق . ولكنهما قاما بمشروعات اصلاحية تذكر منها (١) الغاء معظم الضرائب المفروضة على الاهالى كالضريبة الشخصية وغيرها (٢) الغاء ضريبة المقابلة (٣) تعيين مواعيد في أوقات المحاصيل لتحصيل ضريبة الاطيان بعد ان كانت فوضى

(٢) أما تسوية الديون فقد تشكلت لها لجنة سميت لجنة التصفية من أعضاء ممثلين للدول العظمى (بريطانيا والمانيا

وفرنسا والنمسا وايطاليا) ومن أعضاء صندوق الدين . وقد قامت هذه اللجنة بفحص المسألة وقدمت اقتراحات وافقت عليها الدول وأقرتها الحكومة المصرية التى أصدرت (قانون التصفية فى يوليه سنة ١٨٨٠) الذى سوى الديون كلها تسوية عادلة . وأهم شروط هذه التسوية .

(١) تقسيم الديون التى بلغت إذ ذاك فوق ٩٨ مليون جنيه الى دين موحد ودين ممتاز ودين الدائرة السنيه ودين الدومين بفوايد بين ٤و٥ فى الماية بضمانة إيرادات بعض المصالح والمديريات

(٢) يرد دين المقابلة للذين دفعوه على أقساط لمدة ٥٠ سنة (تنتهى فى ٣٠ يونيه سنة ١٩٣٠) وبحيث لا تخفض ضريبة الاطيان كما كان مقرراً

وقد كان لهذه التسويه أثر حسن فى الدوائر المصريه والاوربية عكف صندوق الدين على تنفيذ هذا القانون (١).

(١) وقد صدرت من الحكومة المصرية بعد ذلك عدة قوانين منظمة لادارة الديون . وكانت مالية البلاد قد أخذت في التحسين المطرد مما انعش الآمال وطمأن الدائنين والدول

وقد كان (بعد الفصل فى المسألة الماليه) هناك أمل كبير فى أن تسير الحكومة بمعاونة المراقبة الثنائيه فى الاصلاح الداخلى من ترقية التعليم وتنظيم الرى وتحسين موارد الثروة لولا أن داهم البلاد حوادث الثورة العرابية فدخلت البلاد في طور جديد

(٤) الثورة العرابية

تعد ثورة الجند فى عهد اسماعيل أول بذرة من بذور الثورة وأساسا قام عليه حزب عسكرى يشترك فى سياسة البلاد ويعمل على تخليصها من التدخل الاجنبي

وكان روح الاستياء قد دب فى الرأى العام المصرى من التدخل الاجنبي أيضا يزكيه اتصال اسماعيل باشا بالاعيان وأعضاء مجلس شورى النواب وإيعازه اليهم بتقديم العرايض والاحتجاجات والمطالبة بوضع دستور جديد أوسع

على أمو الهم الى أن كانت سنة ١٩٠٤ وعقد الاتفاق بين انجلترا وفرنسا لتسوية الخلافات السياسية والاستعمارية بينهما (وسيأتى الكلام عليه) فقد وضع على أثره أمر عال نظم الدين المصري تنظيما ثابتا ولم يحصل تغيير بعد ذلك

حرية وتحمل مسؤلية . وكان لتطور الحوادث ثم رفض توفيق باشا الاخذ بالدستور الذى وضعه شريف باشا أثر فى تفشى روح الاستياء فى الرأى العام وبدا من مظاهر هذا الاستياء ما يدل على اتجاه الامة نحو فكرة الانقاذ وتخليص البلاد من اليد الاجنبية

ولم يمض الا قليل حتى ظهرت البوادر فكانت العامل المباشر للثورة

بوادر الثورة : كان الضباط المصريون يتوقعون أن اصلاح الجيش وتحسين مراكزهم من ضمن منهج الاصلاح المشروع فى عمله للبلاد ولكنهم لم يظفروا بشىء خصوصا وقد كانت الترقية فى الجيش تكاد تكون قاصرة على الضباط الاتراك والشراكسة فابتدأ الجند يظهرون تذمرهم من الحكومة ومن ناظر الحربية إذ ذاك وكان من الشراكسة (عثمان رفقى باشا) . وقد تمثل هذا التذمر فيما اتفق عليه بعض الضباط المصريين وعلى رأسهم على فهمى بك وعضده الاكبر عبد العال بك حلمى وأحمد بك عرابى وكانوا من

رتبة أميرالاى . وقد قرروا تقديم عريضة الى رئيس النظار (رياض باشا) للنظر فى مطالبهم وهى تحسين نظام الترقية بالنسبة للضباط الوطنيين مع عزل رفقى باشا

كان زعيم هـذه الحركة هو على بك فهمى — ولكن مالبث أن ظهر أحمد عرابى فى زعامة الحركة لما امتاز به من صفات كالفصاحة فى الخطابة وما أفاض به من اخلاص للوطن وتوجيه حركة الضباط الى حركة وطنية تطالب بالحكم النيابى واسع الحرية وتخليص مصر من التدخل الاجنبى

لما تقدمت العريضة الى رئيس النظار وعلم بها الخديو أمر بمحاكمة أحمد عرابى وعلى فهمى أمام مجلس عسكرى — وفى أثناء المحاكمة بوزارة الحربية (كانت بقصر النيل) هجم بعض رجال الجيش على المجلس وأخرجوا عرابيا وعلى فهمى قسرا . مما دل على أن الحزب العسكرى اشتد ساعده وثار فعلا فى وجه الحكومة . وأصبح الموقف حرجا اضطر الخديو أمامه أن يجيب المطالب فعزل رفقى باشا وعين بدله

محمود سامي البارودى باشا وأعلن أن الضباط المصريين سيتساوون بالاتراك والشراكسة في الترقيه

كانت هذه ثانى ثورة للجند لم يعقبها أى اضرار بهم مما زاد في قوة الحزب العسكرى وابتدأ يتصدر لبحث المسألة السياسية المصرية على العموم ولم يقتنع باجابة المطالب ونظر الى الخديو نظرة الخائف منه لما دخل فى روع زعماء الحزب من أن الخديو أجاب مطالبهم مرغما وأنه يرغب في استمرار التدخل الاجنبى فى شئون البلاد ومع حرمانها من التمتع بالحكم النيابى الصحيح

يوم عابدين المشهود : تحرجت الاحوال واتسعت الهوة بين الثوار والخديوى لما أصدر أمره بتفريق زعماء الحزب في أنحاء القطر . فامتنعوا عن مغادرة القاهرة وخرج الضباط ونحو ٢٥٠٠ جندياً بزعامة عرابى وتجمهروا أمام قصر عابدين (في ٩ سبتمبر سنة ١٨٨٠) ورفعوا مطالبهم للخديوى التي تتلخص أهمها فيما يأتى

(١) تشكيل وزارة جديدة

(٢) تشكيل مجلس نيابى واسع الاختصاص والمسئولية بدلا من مجلس شورى النواب

(٣) زيادة عدد الجيش الى ١٨٠٠٠

(٤) التصديق على قانون العسكرية الجديد

فنزل الخديوى من السراى وخاطب عرابى عن أسباب حضوره ومطالبه فكان من إجابات عرابى قوله المشهور « لقد خلقنا الله أحرارا وإننا لا نستعبد بعد اليوم » ثم انتهى هذا اليوم المشهود فى تاريخ مصر بان شكل الخديوى وزارة برئاسة شريف باشا صاحب مشروع الدستور

دعوة مجلس شورى النواب : بعد ذلك أمر الخديوى بدعوة مجلس شورى النواب إجابة لمطالب العرابيين وعلى أثر العريضة التى رفعت من النواب وعدد كبير من الامة وقد افتتح المجلس فى ٢٩ ديسمبر سنة ١٨٨١ وظل يجتمع للنظر فيما يعرض عليه

تدخل انجلترا وفرنسا : كانت فرنسا تريد أن تبسط نفوذها على مصر فاتفقت مع انجلترا على التدخل فى الامر

واتخذتا من الحوادث ذريعة للتدخل فأرسلتا مذكرة مشتركة للخديو يظهران استعدادهما لمساعدته فى التغلب على القلق الحالى والعمل لتثبيت عرشه اذا بدت من الحزب العسكرى أعراض جديدة

كان وقع هـذه المذكرة على مجلس شورى النواب والرأى العام سيئا حتى عدوا الخديو أنه لايرغب فى تعضيد الدستور وانحيازه للأجانب

وكان قد عرض شريف باشا الدستور الجديد على المجلس لبحثه فاختلف مع المجلس فى مسألة «ان رأى المجلس يكون قطعيا فى ميزانية الحكومة» — واضطر شريف باشا الى الاستقالة فعين الخديوى محمود سامي البارودى باشا للرئاسة ومعه عرابي باشا لنظارة الحربية ثم صدر الامر فى ٧ فبراير سنة ١٨٨٢ بالدستور الجديد الذى كفل مسئولية الوزارة أمام المجلس وجعل له حق مناقشة الميزانية فى كل مايختص منها بالدين العمومى وظل المجلس يوالى اجتماعه الى آخر الدورة فى ٢٦ مارس سنة ١٨٨٢

أوجست انجلترا وفرنسا خيفة من تغلب الحزب العسكرى والنواب ووصولهم الى أمانيهم من السيطرة على حكم البلاد كما رأيت وانتظرا يتحينان الفرصة واذا بالخلاف يقع بين الوزراة (وهي تمثل الحزب العسكرى) وبين الخديو . لأن عرابي حاكم عثمان رفقي وبعض الضباط الذين أتهمهم بالتآمر ضد الحركة وصدر حكم المجلس العسكرى بنفيهم الى السودان فأبى الخديو الموافقة على هذا الحكم واشتد الخلاف حتى استقالت وزارة البارودى فانتهزت الدولتان الفرصة وأرسلت كل منهما أسطولا الى المياه المصرية استعدادا لاستعمال القوة اذا اقتضى الحال مما جعل الحزب العسكرى ازاء ذلك يجمع الجيوش ويعد العدة ويهيء الاحوال للدفاع عن البلاد عند الضرورة ووجد استعدادا من جانب الامة التي لم تضن عليه بالمساعدة وطنية منها وحرصا على بقاء الحكم النيابي والدستور

تفاقم الحالة : كان استعداد البلاد للدفاع يروع الاوروبيين فبدأ سوء التفاهم بينهم وبين المصريين وأسند الاوروبيون

الى المصريين التعصب الديني وأظهروا تخوفهم من أن يصيبهم المصريون بأذى — واعتقد المصريون أن الاوروبيين يريدون القضاء على استقلالهم واستمرار التدخل الاوروبي في شئونهم . وتحرش الطرفان بعضهم ببعض وظلت الاحوال تزداد صعوبة حتى وقعت حادثة الاسكندرية تلك الحادثة التي تتلخص في أن أحد المالطيين (وهم من رعايا بريطانيا) امتنع عن دفع أجرة الى مكارى وطنى وطعنه بسكين فتذمر الوطنيون من هذه الحادثة وأرادوا أن يثأروا من الاجانب فوقعت في هذا اليوم (١١ يونيه سنة ١٨٨٢) مذبحة بين الطرفين لكن تمكنت الحكومة من تهدئة الفتنة في آخر اليوم وسافر الخديو الى الاسكندرية لتحقيق أسباب الفتنة وهناك ألف وزارة برياسة راغب باشا

كان لهذه الحادثة أثر سيء عند الدول واتخذتها ذريعة للقضاء على الحزب العسكرى والروح الوطنية المنبثة في أنحاء البلاد زاعمين أن الاجانب في خطر . كما أن الخديو شعر

بحرج مركزه وبعزلته عن القوة المسيطرة على البلاد وحاجته الى الحماية

عقدت الدول مؤتمرا في الآستانة للنظر في المسألة المصرية لكنه لم يأت بنتيجة لمراوغة الباب العالى الذى كان يريد أن يكون وحده صاحب الامر فى حسم المسألة

ضرب الاسكندرية: وكان العرابيون يحصنون قلاع الاسكندرية فطاب قائد الاسطول ايقاف التحصين ريثما يقرر المؤتمر المجتمع بالآستانة شيئا فى المسألة المصرية وإلا فهو فى حل من ضرب المدينة ثم انسحب الاسطول الفرنسى وقرر الاسطول البريطانى الانفراد بالعمل وفى صبيحة ١١ يوليه سنة ١٨٨٢ أطلق الاسطول مدافعه على الحصون فأسكتها ودمر بعضها فى ساعات واحتل الجند البريطانى المدينة

وحينئذ أضطر عرابى أن ينسحب الى كفر الدوار وأنشأ بها خط دفاع حصينا ليصد الغارة الانجليزية

موقعة التل الكبير . كان عرابى مطمئنا على مصر من الجهة الشرقية إرتكانا على حياد القناة خصوصا وأن ساسة

فرنسا اعلنوا أن قناة السويس بمأمن من أى تهديد

لكن الانجليز لم يعبأوا بهذا الحياد وحولوا جيوشهم الى الجهة الشرقية فاضطر عرابى أن ينقل جيوشه وذخائره بسرعة الى التل الكبير وهناك وقعت موقعة بين الجيشين لم تستغرق أكثر من عشرين دقيقة تفوقت فيها الجيوش الانجليزية وتشتتت الجيوش المصرية

ابتداء الاحتلال البريطانى : ومن ثم سار الجيش البريطاني الى القاهرة فدخلها فى اليوم الثانى (١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢) وتسلم القلعة وبذلك ابتدأ احتلالهم للقطر المصرى

أما عرابى فقد سلم نفسه وقبض الانجليز على باقى زعماء الثورة وحكم عليهم المجلس العسكرى بالاعدام ثم استبدله الخديو بالنفى فنفى عرابى الى جزيرة سيلان بالهند ثم عفى عنه وعاد لمصر سنة ١٩٠١ وظل بها الى أن مات سنة ١٩١١

الباب الثالث

عصر الاحتلال البريطاني

الفصل الاول — مدة حكم توفيق باشا فى عصر الاحتلال

١٨٨٢ م — ١٨٩٢ م

كان فشل الثورة العرابية التى انتهت بالاحتلال البريطانى سببا في الذهاب بمجلس شورى النواب والقضاء على رجال الثورة العسكريين الذين كانوا متضامنين مع المجلس . وقد هدأت الثائرة الوطنية عند المصريين بسبب خيبة الآمال

التدخل البريطانى

كان غرض بريطانيا من التدخل فى شئون مصر والاحتلال البريطانى هو إقماع الثورة العرابية والمحافظة على عرش الخديوى توفيق باشا . أما الثورة فقد أقمت تماما بنفى زعمائها . وقد أعلنت بريطانيا أن الاحتلال البريطانى موقت ينتهى بتوطيد عرش الخديوى ومع ذلك فقد ظهر على أثر الثورة تعلق المصريين بالعرش الخديوى وكان الامل معقودا على أن الاحتلال البريطانى ينتهى عاجلا

لـكن بريطانيا أرادت أن تنشب أظفارها فى شئون البلاد المصرية وأن تسيطر عليها وتضع يدها على كل ناحية من نواحيها . الحـكومة والمرافق الحيوية والاقتصـادية .
واعملت سياستها الاستدراجية لتصل الى أغراضها هذه

فما هى الا نحو شهرين يمضيان على قمع الثورة حتى أوفدت بريطانيا أحـد كبار ساستها وهو اللورد دوفرين لبحث حالة مصر واقتراح ما يراه من اصلاحات . وهذا غرض جديد غير الغرض الاصلى من الاحتلال وهو المحافظة على عرش الخديوى . ومع الاسف أن السياسة البريطانية لم تجد فى مصر أية معارضـة توقف تيار التدخل البريطانى فان الخديوى رمى بنفسه فى أحضانهم وكان كبار رجال الحكومة أغلبهم من الناقمين على الثورة العرابية فلم ينتظر منهم معارضة الاحتلال الذى اقمع الثورة . وأما الرأى العام فان فشل الثورة والوعد بالجلاء أضعف عنده حذوة معارضة التدخل الاجنبى

اقتراحات اللورد دوفرين . تجول اللورد دوفرين فى أنحاء البلاد وقابل كثيرين من الوجوه والاعيان . ثم وضع

تقريره عن الحالة واقترح عدة افتراحات بشأن نظام الحكم ووسائل ارتقاء البلاد الداخلية من رى وتعليم وبوليس الخ .
وطبيعى أن يكون البريطانيون المحتلون هم الذين يأخذون على عاتقهم تنفيذ السياسة الجديدة لتنظيم الحكم ووسائل العمران

النظام النيابى

رأى اللورد دوفرين أن يتدرج المصريون فى هذا النظام بان يُنشأ نوع من المجالس النيابية تكون محدودة السلطة وتحت اشراف الحكومة (المحتلة) . مع أن المصريين قد برهنوا على كفاءتهم واستحقاقهم للنظام النيابي واسع الحرية

أخذت الحكومة بهذا الرأى وأصدرت المرسوم فى أول مايو سنة ١٨٨٣ بالقانون النظامى (دستور) وقانون الانتخاب تنفيذاً لاقتراحات اللورد دوفرين

قضى هذا الدستور (القانون النظامى) بانشاء ثلاث هيئات . (١) مجالس المديريات (٢) مجلس شورى القوانين

(٣) الجمعية العمومية

مجالس المديريات . وهى أن يشكل لكل مديرية مجلس من أعضاء ينتخبون عن المديرية ويكون المجلس تحت رئاسة المدير (الحكومة) . واختصاصه ابداء الرأى أو الرغبة فقط (أى ان الرأى غير قطعى والحكومة غير ملزمة بالاخذ به) في مشروعات المنافع العامة المديرية كالرى والطرق وانشاء مبانى الحكومة كالسجون وفى تقدم التعليم وتنظيمه وإصلاح الزراعة

مجلس شورى القوانين . ويتشكل من ٣٠ عضوا منهم ١٤ عضوا تعينهم الحكومة و ١٦ عضوا ينتخبون عن المدن الكبيرة والمديريات . واختصاصه النظر وإبداء الرأى فى كافة القوانين ولوائح الادارة العمومية وفى ميزانية الحكومة (الايرادات والمصروفات) والحساب الختامى — على أن رأيه استشارى محض أى أن الحكومة غير مقيدة برأيه فى أى مشروع . واذا لم تأخذ الحكومة برأيه فى مسألة من المسائل فبلغه الاسباب ولا يجوز للمجلس المناقشة فى هذه الاسباب

ويلتئم هذا المجلس فى بعض شهور السنه

الجمعية العمومية : وتتشكل من ٨٢ عضوا منهم ٣٠ أعضاء مجلس شورى القوانين و ٤٦ ينتخبون عن المدن والمديريات . ومن النظار (الوزراء) . واختصاص هذه الجمعيه ابداء الرأى فى كافة أنواع الضرائب ورأيها فى ذلك قطعى أى انه يجب ان تأخذ بها الحكومه ولا تقرر ضريبة مالم توافق عليها الجمعيه وتلتئم هذه الجمعية مرة فى كل سنتين

انشاء المحاكم الاهلية

كانت المحاكم الشرعية تقضي بين المسلمين فى كل مايتعلق بالاحوال الشخصية وفى كثير من الاحوال المدنية وكانت جهة الادارة (الحكومة والحكام) من اختصاصها الفصل والتنفيذ فى الامور الجنائية وفيما يعرض لهم من خصومات مدنية بين الناس ولكن على غير أساس أو قواعد قانونية منظمة

على أن محمد على أنشأ الديوان الخديوى للقاهرة الذى كان أشبه شىء بمحكمة جنايات . وأنشأ عباس الاول مجالس قضائية فى الاقاليم .

ثم أنشأ اسماعيل (المجالس المحلية) فى المدن والمديريات كانت تفصل فى الدعاوى والمنازعات. وأنشأ ديوان الحقانية للاشراف على هذه المجالس. ولكن جهة الادارة كانت تتسلط على هذه المجالس فافقدتها العدالة التى هى أساس الاحكام

ولما أنشئت المحاكم المختلطة وأخذت فى اقامة العدل بالقانون الذى وضع لها وبالاجراءات القضائية المنظمة. تاقت الناس الى ترتيب محاكم أهلية على نمط المحاكم المختلطة لتكفل العدل بين الناس. وفعلا وضعت الحكومة فى سنة ١٨٨١ لائحه لترتيب المحاكم الاهليه ولكن الثورة العرابيه عطلتها ولما انتهت الثورة عادت الحكومه الى تنفيذ هذه الفكرة فاتمتها بوضع القوانين اللازمه التى استمدتها من القانون الفرنسي والشريعه الاسلامية وافتتحت المحاكم الاهلية سنه ١٨٨٣ بالوجه البحرى وفى سنه ١٨٨٩ فى الوجه القبلى (١)

وهذه المحاكم على درجتين فى الغالب أول درجة (ابتدائى) وثانى درجة (استئناف) وهى تفصل فى كافة المنازعات المدنية

(١) ألغيت المجالس المحلية وصار يعبر عنها بالمجالس الملغية (الملغاة)

وفى الجنايات بين الرعايا المصريين . وبقيت المحاكم الشرعية خاصة بالفصل فى الاحوال الشخصية والوقف .

السودان

علمت كيف فتح محمد على السودان وتملكه . وكيف توسع اسماعيل فى فتوحاته حتى بلغ الصومال وأواسط أفريقية وما أنفقه فى سبيل ذلك من أموال ونظراً لتبعية مصر الدولة العالية فان الاخيرة كانت جعلت إدارة السودان حقا لامير مصر بالارث وظلت الحالة كذلك الى عصر الاحتلال فكان من برنامج المحتلين انتزاع السودان من مصر بكل الوسائل وانظر ماذا فعلوا .

قامت ثورة فى السودان بزعامة (المهدى) فأرسلت الحكومة حملة لاخماد هذه الفتنة . فكان للاحتلال ضلع طبعا فى هذه الحملة (جُعلت القيادة لقائد بريطانى ومعه بعض الفرق البريطانية) . لكن هذه الحملة بادت كلها وكان من الممكن تعزيز هذه الحملة أو ارسال حملة أخرى أو تلافى النكبة التي وقعت ولكن بريطانيا نصحت للحكومة المصرية بالتخلى

عن السودان فلم تقبل الوزارة المصرية إذذاك . وكان على رأسها شريف باشا. ولما أصرت بريطانيا على رأيها اضطر شريف باشا الى الاستقالة وأعقبه نوبار باشا فى رئاسة الوزارة الذى قبل ترك السودان. وفعلا انسحبت الجنود المصرية والانجليزية من السودان سنه ١٨٨٥ وهي خطوة كانت على درجة كبيرة من الخطورة

تغلغل البريطانيين فى الحكومة : لم تغفل الدولة العلية عن مطالبة بريطانيا بالجلاء عن مصر . ولكن بريطانيا كانت تسوف وتنتحل الاسباب وتدخل فى مفاوضات مآلها الفشل . كل ذلك لاطالة أمد الاحتلال وتثبيته بمصر بطريق التغلغل فى وظائف الحكومة لتصبح السلطة الحقيقية فى أيديهم.

الاصلاحات الداخلية : على أنهم بحثوا عدة مشروعات عامة للاصلاح الداخلى وشرعت الحكومة فى اجرائها . كتنظيم الرى بحفر بعض الترع والمصارف . فحفر الرياح التوفيقى وأصلحت القناطر الخيرية من الخلل الذى كان قد

أصابها سنة ١٨٨٩ . وظهرت فوائد اصلاحات الرى بالتوسع في الاطيان المزروعة فزاد محصول القطن والمحاصيل الاخرى

كما أنه شرع فى اصلاحات أخرى كالتعليم والبوليس وغير ذلك

لكن هذه الاصلاحات جميعها المحتلون ترمى استنزاف الموارد الاقتصادية وبحيث لاتعدو مصالحهم . فالتوسع فى الاراضى الزراعية مثلا كان لغرض تموين مصانع انجلترا بالقطن المصرى . والتعليم لغرض اخراج موظفين للحكومة يخضعون لسلطتهم . كل هذا والحكومة والخديوى لايحركان ساكنا الى أن توفى توفيق باشا سنة ١٨٩٢ .

الفصل الثاني — حكم عباس الثاني فى عصر الاحتلال

١٨٩٢م — ١٩١٤م

لما توفى الخديو توفيق باشا فى سنة ١٨٩٢ إعتلى عرش مصر ابنه عباس (عباس الثانى) وصدر له فرمان الدولة

تعلم عباس مع أخيه محمد على في النمسا . ولما اعتلى الاريكة الخديوية كان يتوقد حمية وغيرة على مصر . وكانت أولى

أغراضه أن يحرر بلاده من الاحتلال البريطانى . وأن يعيد بالبلاد عهد جديه اسماعيل ومحمد على لينهض بالبلاد نهضة في كل ناحية من نواحى الحياة ويحقق لها استقلالها

مركز الاحتلال

كانت مسألة اجلاء البريطانيين عن بلاده وتقليم أظفارهم التى نشبت فى الادارة المصرية هى شغلة الشاغل . إلاّ أنه لم يجد كثيرا ممن يؤازرونه في العمل . وكان اللورد كرومر المعتمد البريطانى فى مصر يقظاً ساهراً على تثبيت قدم الاحتلال في البلاد . لذلك استمر الكفاح بين عباس وكرومر الى أن عُزل الاخير سنة ١٩٠٧

إنه وإن تمكن المحتلون في ظروف مختلفة من التغلب على عباس الثانى فقد كان ذلك راجعا الى استنادهم على قوتهم الحربية وأسطولهم الضخم . وليس على أى حق مشروع . أما حقهم في الاحتلال وهو توطيد عرش الخديوى فقد زال طبعا خصوصا وأن الخديوى نفسه (عباس الثانى) أراد اجلاءهم وما ذلك الا لانه متأكد بتوطد عرشه حتى أنهم

انتحلوا عذراً جديدا لبقاء الاحتلال وهو السير بالبلاد فى طريق التقدم والنظام

ولم يقف الامر عند هذا الحد فحسب بل ازداد تغلغلهم فى ادارة الحكومة وانتحلوا لانفسهم الحق فى إسداء النصح للحكومة فيما يتعلق بالسياسة الواجب اتباعها وعلى هذا الاساس رأت بريطانيا أن من المصلحة أن يكون بكل وزارة مستشار بريطانى وتعين فعلا مستشار لكل وزارة (الحقانية والداخلية والاشغال والمعارف من سنة ١٨٩١ — سنة ١٩٠٦) أما المالية فكان لها مستشار من سنة ١٨٨٣ — وأما الحربية فكانوا قد وضعوا يدهم عليها من أول يوم للاحتلال باعتبار أنها منبع الثورة العرابية — وكان سردار الجيش انجليزيا يقوم مقام المستشار وزيادة

الاصلاحات الداخلية

سارت الحكومة المصرية وعلى رأس مصالحها الانجليز فى طريق الاصلاح الاقتصادى وتنظيم التعليم والبوليس الخ

الرى : كانت القناطر الخيرية قد نظمت الرأى فى

أكثر أقاليم الوجه البحرى ومع ذلك فقد أنشئت فى الوجه البحرى عدة مشروعات لتوفير المياه من حفر ترع ومصارف وبناء قناطر . ومن أهم تلك المشروعات قناطر زفتى التى انشئت سنة ١٩٠٢

أما الوجه القبلى فكان لم يزل يروى بطريقة الحياض العتيقة . فوضعت له مشروعات ليروى ريا صيفيا كالوجه البحرى . ومن هذه المشروعات قناطر أسيوط سنة ١٩٠٢ وقناطر إسنا سنة ١٩٠٩

على أن أعظم مشروع عُمل لتنظيم الرى فى مصر بل وقد عُد من أعظم المشروعات فى القرن العشرين فهو خزان اسوان الذى هو من أعظم ماشيده الانسان . فقد تم فى سنة ١٩٠٢ وكان سبباً فى حجز كميات هائلة وراءه من المياه لرى الوجه القبلى رياً صيفيا وتغذية مشروعات الوجه البحرى بالمياه أيضا . وقد تعلى هذا الخزان سنة ١٩١٢ فزادت كمية المياه التى يحجزها مما ساعد على التوسع فى مساحة الاطيان التي تزرع حتى كثرت المحاصيل ونمت الثروة فى أيدى المصريين

طرق المواصلات : عني بتمهيد الطرق الزراعية وزيادتها في الوجهين البحرى والقبلى

ومدت خطوط حديدية جديدة رئيسية وفرعية فى الوجهين البحرى والقبلي أيضا . وكثرت الخطوط التلغرافية

كما أنه أعطيت امتيازات لشركات أجنبية لمد الخطوط الحديدية الضيقة

ودخلت اصلاحات كثيرة على نظام البوستة . وتحسنت المـوانئ والمنائر المصرية وغير ذلك من ضروب اصـلاح المواصلات

المساحة وتعديل الضرائب : كانت الضرائب تقدر على الاطيان الزراعية تقديرا على غير أساس فلم يتوفر فيه العدل والمساواة . وفى سنة ١٨٩٩ أصـدرت الحكومة أمراً عالياً بتعديل الضرائب على أساس العدل والمساواة بنسـبة ريع الاطيان . وقد عُمل من أجل ذلك مساحة عن اطيان القطر لمعرفة زمام كل ناحية ومساحة كل حوض حتى يكون تقدير الضرائب بنظام يكفل العدل المنشود .

مبانى الحكومة : شيدت الحكومة من المباني المفخمة . دار الكتب ، ودار الآثار المصرية ، ودار محكمة الاستئناف الاهلية بالقاهرة ، والمحكمة المختلطة بالاسكندرية ، خلاف المبانى الكثيرة اللازمة لمختلف المصالح وفروعها فى العواصم والاقاليم .

الشئون الصحية : عنى بالشئون الصحية ففتحت الحكومة كثيرا من الاسبتاليات فى العواصم . وجعل لكل مركز مفتش صحة يسهر على الاحوال الصحية فى الاقاليم . ويكافح الاوبئة والامراض المعدية بالوسائل الطبية كالعزل وغيره .

التعليم : وجه الاحتلال سياسة التعليم بوزارة المعارف الى تعميم اللغة الانجليزية وإحلالها محل اللغة الفرنسية بالبلاد . والى تخريج عدد من المتعلمين لملء وظائف الحكومة وبحيث يدينون بالطاعة للانجليز . وعلى ذلك وضعت الخطط والمناهج التى تحقق هذه الاغراض . فكان المجهود موجها نحو الاكثار من عدد المدارس الابتدائية . أما التعليم

الثانوى والعالى فلم يعن بزيادته وترقيته . وكذلك التعليم الأولى لم يعمل على تقدمه ونشره حسب حاجة البلاد . كما أن البعثات العلمية كانت قليلة واقتصرت على بعث بعض الطلاب الى انجلترا فقط ليحذقوا فى اللغة الانجليزية ويعودوا للقيام بمهنة التدريس فى المدارس . وبالرغم من ذلك فقد تغلب الذكاء المصرى وتخرج من المدارس والبعثات نخبة من الشبان الذين أشربوا حب العلم وكانوا غرسا صالحا توقدوا حمية وغيرة على مصالح بلادهم

السودان

علمت فيما سبق مافعل الانجليز حتى تركت مصر سودانها . والآن ترى أن مافعلته كان حيلة وخدعة تقصد به أن يتخلى المصريون عن السودان ليعودوا اليه ويفتحوه وحينئذ يدعون حقوقا عليه ويسلبون من مصر حياتها .

كانت فرنسا تتوغل فى أواسط أفريقية حتى صارت عند أعالى النيل . وكان الدراويش بالسودان اتحدوا مع الاحباش وقاموا بحركة معاً وزحفوا حتى صاروا على مقربة

من كسلا . فانتهز المحتلون هذه الفرصة لبسط نفوذهم على السودان . ولما كان لهم من السيطرة على الحكومة المصرية جهزوا حملة فى سنة ١٨٩٦ بقيادة « كتشنر » سردار الجيش المصرى لاعادة فتح السودان .

زحف الجيش المصرى واشتركت معه بعض الوحدات البريطانية . وظلت الحملة فى وقائع مع الدراويش حتى استولت على الخرطوم سنة ١٨٩٨ م ورُفع عليها العلمان المصرى والانجليزى إيذانا باشتراك الجيشين فى الفتح وما هى الا سنة أخرى (١٨٩٩) حتى كان قد تم فتح السودان تقريبا . وأصبح فى قبضة ادارة مصرية انجليزية قولا وانجليزية فقط فعلا

وقد أعقب ذلك عقد اتفاقية بين الحكومتين المصرية والبريطانية فى يناير سنة ١٨٩٩ بجعل السودان شركة بين مصر وبريطانيا

إن هذه الاتفاقية يراها البعض إنها غير مشروعة قانونا . لان مصر عند عقدها كانت تحت تأثير النفوذ البريطانى وكانت بحكم تبعيتها الى تركيا لا تملك حق عقد مثل هذه الاتفاقية

التى سلخت جزءا من البلاد وأشركت دولة أجنبية فى حكمه .

انفراد بريطانيا بالعمل فى مصر

كانت فرنسا تضع العرقيل فى سبيل بريطانيا فى مصر لحنقها عليها بسبب انفرادها بالعمل فى الثورة العرابية واسيطرتها على البلاد وهو مما يهدد مصالح فرنسا . فكانت تثير مسألة الاحتلال من وقت لآخر لجلاء بريطانيا أو لتحديد زمن هذا الاحتلال وكانت تعزز بجانب تركيا التى كانت تطلب الجلاء أيضا أو تحديد زمنه. حتى اذا كانت سنة ١٩٠٤ عقدت بريطانيا مع فرنسا اتفاقا وديا على أن تطلق فرنسا يد بريطانيا في مصر نظير اطلاق يد فرانسا فى مراكش وبذلك اطمأنت بريطانيا على مركزها فى مصر من جانب فرنسا

الحركة الوطنية المصرية

لما انتهت الثورة العرابية بالاحتلال البريطاني علق المصريون آمالهم على أن بريطانيا أعلنت أكثر من مرة على لسان ساستها الرسميين وغير الرسميين بأن الاحتلال مؤقت ينتهى بتوطيد عرش الخديوى . وكانت فرنسا

تحتج من وقت لآخر على هـذا الاحتلال . كما ان الدولة العلية كانت تطالب بالجلاء أو على الاقل بتحديد زمنه .

كم وعد الانجليز بانه لامطمع لهـم فى مصر سوى توطيد العرش . ولكنهم كانوا يتغلغلون فى الحكومة وقبضوا على زمام السلطة تماما فى ادارة البلاد كما رأيت .

حتى إذا كانت سنة ١٩٠٤ وعُقد الاتفاق الانجليزى الفرنسي الذى اعترفت فيه فرنسا بمركز بريطانيا فى مصر شعر المصريون بان الاعتماد لا يكون الا على أنفسهم لتخليص بلادهم من الاحتلال غير المشروع والذى لامبرر له

وكان قدوجد بمصر طبقة مستنيرة من الرجال والشبان الذين تلقوا العلوم الحديثة بمصر وأوروبا عملوا على النهوض ببلادهم سياسياً واقتصاديا وعلميا . وظهر من بينهم مصطفى كامل باشا الذى دخل ميدان السياسة بمجرد تخرجه من مدرسة الحقوق سنه ١٨٩٢م . وظل يجاهد بلسانه وقلمه يعضده خديو البلاد فى بث الروح الوطنيه فى المصريين .

وثابر على نشر الدعوة فى مصر وأوروبا ضد بريطانيا مطالبا

بالجلاء . وأسس الحزب الوطنى الذى ضم نخبة من رجال مصر المتوقدين وطنية وفى مقدمتهم المرحوم محمد بك فريد (١) . وجعل جريدة اللواء لسان حال الحزب فكانت ميداناً تبارى فيه شباب مصر الناهض ومدرسة تبث تعاليم الوطنية فى نفوسهم حتى تكونت طبقة منهم وقفت حياتها على تحرير بلادها .

اشتعلت الحركة الوطنية فى الاربعة العشر سنوات الاولى من القرن العشرين للنهوض بالبلاد وانتشالها من أيدى الاحتلال حتى يتمتع المصريون بالاستقلال الذى

---

(١) كان المرحوم محمد بك فريد مثال التضحية بالنفس والمال والأولاد في سبيل انقاذ مصر . وقد أرغم على مغادرة بلاده فرحل الى اوربا وظل ينشر الدعوة لتحرير مصر من الاحتلال بكل الوسائل واحتمل الآلام والمشاق فى سبيل مصر الى انمات فى المانيا سنة ١٩٢١ . ونقل رفاته الى مصر أحد الوطنيين الذين قدروا جهاده وهو المرحوم الحاج خليل عفيفى من تجار الزقازيق . واحتفلت الامة المصرية بتشييع جنازته حتى ووري مقره الأخير بمقابر الخلفاء العباسيين وراء ضريح السيدة نفيسة . لأنه يمت بالمصاهرة إلى سلالة العباسيين

درجوا عليه . ولاقامة حكومة نيابية (دستورية) على أحدث النظم الاوروبية .

ولما مات مصطفى كامل باشا سنة ١٩٠٨ اهتزت البلاد من أقصاها الى أقصاها وخرجت الطوائف والهيئات والطلبة يشيعون جنازته بدافع واحد . فدل ذلك على اشتعال جذوة الروح الوطنية فى نفوس المصريين . وعلى أنهم قلبا واحدا يخفق بحب مصر . وعلى أن دعوة مصطفى صادفت آذانا صاغية وقلوبا واعية . أما المحتلون فتربصوا لهذه الحركة القومية المباركة . ثم عمدوا الى معارضتها وألفت من عضدها بكل ما أوتوا من سيطرة ونفوذ وسياسة وقوة . فكم حاولوا التفريق بين عناصر الامة المصرية وكم زجوا في السجون وأغلقوا من صحف وطنية . كل هذا والمصريون صابرون على احتمال المكاره فى سبيل تحرير بلادهم من أغلال الاحتلال .

تغيير النظام النيابى

طالب المصريون فى حركتهم الوطنية بدستور واسع السلطة

على نحو ما اكتسبوه قبل الثورة العرابية . حتى يشرفوا على أعمال الحكومة والقوانين التي يعاملون بها

لكن الحكومة يسيطر عليها الانجليز أخذت بالنظرية البريطانية القائلة بتدرج المصريين فى الحكم النيابي . ورأت التوسع فى النظام النيابي الذى كان موضوعا من سنة ١٨٨٣ باعطاء المصريين حظا أوسع فى مشاركة حكومتهم الحكم وأصدرت فى أول يوليه سنة ١٩١٣ دستورا (قانونا نظاميا) جديدا بالغاء نظام مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية . والاستعاضة عنهما بمجلس سمى «الجمعية التشريعية» وصدر أيضا قانون انتخاب جديد يحقق النيابة عن الامة بشكل أوسع

شكلت هذه الجمعية من ٦٦ عضوا انتخبوا عن المدن والاقاليم و١٧ عضوا عينتهم الحكومة خلاف النظار (الوزراء)

وكان اختصاص الجمعية : (١) إبداء الرأى فى الضرائب ورأيها فيها قطعى . (٢) إبداء الرأى فى مشروعات القوانين ورأيها فيها استشارى . لكن مع التوسع فى مناقشة الحكومة (٣) للاعضاء الحق في اقتراح القوانين .

كانت الجمعية التشريعية خطوة جديدة فى سبيل ظهور كفاءة المصريين واستحقاقهم للحكم النيابى والاستقلال. فقد ظهر من بين الاعضاء شخصيات بارزة ذات كفاءات نادرة فى الخطابة والتشريع ودقة المناقشة والثقافة العامة. وظهر حزب معارض بزعامة وكيل الجمعية المنتخب وكان المغفور له سعد زغلول باشا يعضده رجال من خيرة أبناء مصر كعبد العزيز بك فهمى (عبد العزيز باشا فهمى الآن) والمرحوم عبد اللطيف بك المكباتى والمرحوم عبد اللطيف بك الصوفانى . وكان الاخير من أساطين الحزب الوطنى وغيرهم ممن أظهروا كفاءة ومقدرة سياسية لا تقل عن كفاءة أبطال المجالس النيابية فى أوروبا فضلا عما كانوا يفيضون به من وطنية حارة

انتهاء حكم عباس الثاني

كانت الحكومة البريطانية قد عينت السير «إلدُن غورست» معتمدا لها فى مصر فخالف خطة سلفه اللورد كرمر واتبع سياسة الوِفاق مع الخديوى ولكنه توفى سنة ١٩١١ فخلفه اللورد

كتشنر الذى كان سردار الجيش المصرى أيام إعادة فتح السودان فاتبع سياسة عسكرية وسيطر على الادارة المصرية . وعمد الى اصدار الاوامر المختلفة للحكومة والى تنفيذ بعض مشروعات لتحسين مدينة القاهرة كتوسيع ميدان المحطة وميدان المنشية ثم طاف فى الاقاليم طواف الحاكم المستقل بالبلاد مما جعل الخديوى عباس الثانى يقوم بالطواف على الاقاليم فاظهرت الامة المصرية التفافها حوله مما زاد فى حقد اللورد كتشنر على الخديوى ولما قامت الحرب العظمى فى أوروبا سنة ١٩١٤ وكان الخديو عباس فى الآستانة تاركا المغفور له حسين رشدى باشا (وكان رئيس النظار) قائمقام خديوى . وظهرت بوادر اشتراك تركيا فى الحرب ضد بريطانيا أرادت منع الخديو من العودة الى بلاده فسعى حسين رشدى باشا لدى البريطانيين حتى قبلوا عودته ولكن المخابرات التلغرافية لم تستقم بينهما وكان اللورد كتشنر تعين وزيرا للحربيه البريطانيه ومن رأيه عزل عباس فانتهزت انجلترا هذه الفرصه وأعلنت الحمايه على مصر وبذلك دخلت البلاد فى دور جديد

الباب الرابع

عصر الحماية البريطانية

١٨ ديسمبر سنة ١٩١٤ — ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢

الفصل الأول — الحرب العظمى

(أغسطس سنة ١٩١٤ — نوفمبر سنة ١٩٢٧)

ترجع أسباب الحرب العظمى إلى التزاحم الاستعمارى والتنافس التجارى بين دول أوروبا خصوصاً بين ألمانيا وبريطانيا . والى استعداد ألمانيا الحربي وسيادة الروح العسكرية بها . أما السبب المباشر للحرب فكان حادثة قتل ولى عهد النمسا فى سراجيفوا

وقعت الحرب بين شعبتين من الدول : أحدهما النمسا وألمانيا وانضمت لهما تركيا ثم بلغاريا . والثانية الصرب والروسيا وفرنسا وبلجيكا وانضمت لها بريطانيا وسميت بالحلفاء . ثم انضم لجانب الحلفاء إيطاليا فى سنة ١٩١٥ وأعقبها اليونان ورومانيا وفي سنة ١٩١٧ دخلت الولايات المتحدة الى جانب الحلفاء فكانت عاملا مهما فى انتهاء الحرب

أخذت الحرب عدة أطوار وكانت الاحوال تدل على قرب فوز ألمانيا وحلفائها . ولما دخلت الولايات المتحدة الحرب أعلن رئيسها « الدكتور ولسن » شروطه الاربعة عشر التى منها تحرير الشعوب المحكومة على مبدأ أن يقرروا مصيرهم بأنفسهم ومنها أيضا إنشاء عصبة أمم فكان لهذه الشروط تأثير على الشعب الالماني الذى مل الحرب وساعد على ذلك انتعاش الاشتراكية . حتى اذا كانت اواسط سنة ١٩١٨ بدأت قوات ألمانيا وحلفائها تتقهقر فعقدت الهدنة بين المتحاربين فى نوفمبر سنة ١٩١٨ على أساس شروط « ولسن » .

ثم عقد صلح فرساى (يونيه سنة ١٩١٩) بين ألمانيا والحلفاء وصلح سيفر (اغسطس سنة ١٩٢٠) بين تركيا والحلفاء (١)

الفصل الثاني — بسط الحماية وقيام السلطنة المصرية

لما قامت الحرب العظمى كان الخديوى بالآستانة

(١) أرغمت تركيا على توقيع معاهدة الصلح بشروط كانت بمثابة الحكم بالاعدام عليها فقام الأتراك بحركة قومية على رأسها مصطفى كمال باشا يجحت فى المحافظة على كيانها

فانحاز لجانب تركيا مؤملا أن ترسل حملة عسكرية لانقاذ مصر من الاحتلال (١)

وكانت أولى التدابير التي اتخذتها بريطانيا فى مصر أن أعلنت الاحكام العرفية فى ٢ نوفمبر سنة ١٩١٤ لتقبض على زمام الاحوال باليد الحديدية

بسط الحماية : وفى ١٨ ديسمبر سنة ١٩١٤ أعلنت بريطانيا أنه بالنظر الى حالة الحرب التى سببها عمل تركيا وإلى اجتياز مصر عصابات مسلحة للحدود المصرية قد وضعت تحت الحماية البريطانية وأن حقوق المصريين تعتبر وديعة تحت يد الحكومة البريطانية التى أخذت على عاتقها الدفاع عن مصر

السلطنة المصرية : وفي اليوم الثانى أعلنت بريطانيا أيضاً أنه بالنظر لانضمام سمو الخديو عباس لاعداء بريطانيا قد رأت خلعه من منصب الخديوية . وقد عرض هذا المنصب السامى مع لقب « سلطان مصر » على سمو الامير

---

(١) جاءت حملة عثمانية عند القناة في فبراير سنه ١٩١٥ ولكنها فشلت .

حسين كامل أكبر الامراء الموجودين من سلالة محمد على فقبله . وفى هذا اليوم احتفل بتنصيب الامير حسين سلطانا على مصر

المصريون : لم يقبل المصريون هذا التغيير وظهر عدم رضائهم عنه ولكنهم تذرعوا بالصبر خصوصا وأن هذا التغيير مؤقت يزول بانتهاء الحرب كما وعدت بريطانيا

السلطة العسكرية : قبضت السلطة العسكرية فى ظل الاحكام العرفية على زمام الاحوال باليد الحديدية . فنفت إلى مالطة واعتقلت رجال الحزب الوطنى وكل من يشتبه في سيرته السياسية . وأغلقت الجرائد الوطنية وقيدت حرية الاجتماعات وتعرضت حرمة المساكن لمهاجمة السلطة تبحث عن الاسلحة لتجرد المصريين منها

وامتدت يدها الى مرافق البلاد الحربية والاقتصادية فاتخذت مصر قاعدة حربيه وأنشأت عدة معسكرات لتدريب الجيوش وأنشأت المطارات ومحطات التلغراف اللاسلكى . وجمعت ما يربو على المليون وربع المليون من

العمال والفلاحين واستخدمتهم فى ميدان القتال (فى فلسطين والشام) فكانو أكبر عون لبريطانيا على فتح هذه البلاد . كما أن السلطة جمعت المحاصيل والمواشى والوقود من يد الفلاح وكذا الاموال لمساعدة الصليب الاحمر

أما الجمعية التشريعية فصدرت لها المراسيم بالتعطيل الى ان ينتهى الحرب

السلطان : ولما توفى المغفور له السلطان حسين نصبت بريطانيا أخاه أحمد فؤاد سلطانا على مصر فى ٩ اكتوبر سنة ١٩١٧ فكان فاتحة عصر جديد اذ ظل يعالج الامور بحكمته حتى أعلن استقلال مصر سنة ١٩٢٢ وصار ملكا على البلاد

الفصل الثالث — ثورة الاستقلال (سنة ١٩١٩)

درج المصريون على الاستقلال وجرى فى عروقهم دم الوطنية منذ قامت دول الفراعنة بانشاء أقدم المدنيات ومنذ أضافت فى عهد البطالسة صفحات جديدة على الحضارة الانسانية ومنذ ازدهت مدنية الفاطميين وقوة الايوبيين وسلطان المماليك ...

يرجع ظهور الحمية القومية عند المصريين الى عهد اسماعيل منذ ظهر الرأى العام المصرى يعمل على التخلص من التدخل الاجنبى ثم ما كان من الثورة العرابية ثم قيام الحركة الوطنية

إنما ما أصاب المصريون فى عصرى الاحتلال والحماية فكان وقودا لغليان المرجل لم يتهاون المصريون فى حقوقهم .

وحين قدم مستشار الحقانية السير برونيات سنة ١٩١٨ مشروع دستور يقضى على البلاد القضاء المبرم هب فى وجهه سعد زغلول وعبد العزيز فهمى غير مبالين بقوة السلطة العسكرية ودحضا المشروع ونبها الى الاخطار

ولما أعلنت مبادىء ولسن وتهادن المتحاربون وجد المصريون أن الوقت قد حان المطالبة باستقلالهم ولم يتهيبوا لفوز الحلفاء .

تأليف الوفد : أخذ الزعماء في تنظيم حركة سلمية للمطالبة بحقوق البلاد وكان فى طليعتهم سعد زغلول باشا وتألف وفد برئاسته حصل على توكيل من الامة بإيفاده

من قبلها الى أوروبا وانجلترا للسعى فى استقلال مصر .

كانت أولى أعماله التوحيد بين عناصر الامة فجمع بين قلوب الاقباط والمسلمين والتف حول الوفد كافة العناصر متحدين متعاهدين على إنقاذ الوطن

وفى ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ توجه سعد باشا والمرحوم على شعراوى باشا وعبد العزيز فهمى بك الى دار الحماية لبسط مطالب الامة فعد البريطانيون أن هذا العمل خطوة جريئة وخطرة عليهم . فعمدوا الى التهديد ومنعوا الوفد من السفر

هذا بينما كانت الروح القومية تستعر فى نفوس الاهلين يزكيها زعيمها سعد بما أفاض به من وطنية واخلاص وبقوة بيان فى الخطابة كانت تسحر الالباب قبل أن تطرق الاسماع

الثورة : اغترت بريطانيا بانتصارها فى الحرب وصمت أذنها عن أى مطلب عادل حتى أن السلطة العسكرية قبضت فى مارس سنة ١٩١٩ على سعد وثلاثة من أصحابه (اسماعيل صدقى باشا ومحمد محمود باشا وحمد الباسل باشا) وساقتهم الى

مالطة حيث اعتقلوا . واذا بلهيب الثورة يندلع في الانحاء بقيام المظاهرات ورفع الاحتجاجات وتقطيع السكك الحديدية واضربت الهيئات حتى وقفت الاعمال وتعطلت الحكومة لان الشعب بكافة عناصره وطبقاته قام بالثورة واستعد الجميع للتضحية في سبيل انقاذ الوطن

هال البريطانيون هذا الانقلاب الفجائي فعمدوا الى قمع الثورة بالقوة واستعمال العنف ضد شعب أعزل. فكانوا يشتتون المظاهرات بالمدافع والرشاشات وابناء الوطن يسقطون شهداء في سبيل الوطن . وعمدوا الى القرى الآمنة ففتكوا واحرقوا . ولكن الامة صممت على الكفاح والثبات الى النهاية

ارسلت بريطانيا اللورد اللنبي لبحث الحالة . فلم يجد مفرا من فك اعتقال سعد واصحابه . فكان هذا اول انتصار للثورة

ذهب الوفد الى اوروبا لنشر الدعوة للقضية المصرية وعدالتها . والامة في مصر تشد ازره وتعضده

لجنة ملنر : ثم ارسلت بريطانيا الى مصر سنة ١٩٢٠

لجنة برئاسة اللورد ملنر لاستطلاع رأى المصريين فقوطعت هـذه اللجنة وولى الناس وجوههم عنها حتى فشلت تمـاما . وكان هذا ثانى انتصار للثورة

اضطرت لجنة ملنر أن تفاوض الوفـد فى اوروبا على أساس عقد معاهدة تعترف باستقلال مصر وقدمت مشروعا عرضه الوفد على الامة فرفضته لما فيه من أغلال مستورة

عودة سعد إلى مصر : وعاد سـعد الى مصر تحمل على الاعناق من ساعة أن وطأ أرض مصر بالاسكندرية الى بيت الامة بالقاهرة ممـا دل على شـدة ثقة الامة بزعيمها ورمز أمانيها سعد

المفاوضة مع عدلي باشا : لوح الانجليز ثانيا سنة ١٩٢١ برغبتهم فى عقد معاهدة فألف عدلى باشا رئيس الوزارة اذ ذاك الوفد الرسمى وسافر الى انجلترا وفاوض اللورد كيرزون (وزير الخارجية) واذا به يقدم السم فى الدسم فرفض عدلى باشا مشروع المعاهدة بإباء وشمم وعاد الى مصر

تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ : وجـد البريطانيـون أن

المصريين مصممون على الثبات حتى ينالوا حقوقهم كاملة وأن عضدهم ورمز أمانيهم هو سعد فعادوا الى اعتقاله ومعه ثمانية من أصحابه فى سيشل ثم نقلوه وحده الى جبل طارق وظهر أن هذا الاعتقال كان تمهيداً لاعلان تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ . ذلك التصريح الذى أعلنته بريطانيا بناء على معالجة المسألة بالمفاوضة مع رئيس الوزراء اذذاك (عبدالخالق ثروت باشا) الذى يرجع له الفضل فى جعل هذا التصريح يعلن من جانب بريطانيا دون أن تتقيد به مصر

قضى هذا التصريح بانتهاء الحماية واعتراف بريطانيا بمصر دولة مستقلة ذات سيادة . كما أعلنت أنها محتفظة بأربعة أمور تبقى حالتها كما هي الى أن تتفق عليها مع مصر فى مفاوضات حرة (كما زعمت) وهذه الامور الاربعة هي — (١) تأمين المواصلات الامبراطورية (٢) الدفاع عن مصر من كل اعتداء أو تدخل أجنبى (٣) حماية المصالح الاجنبية وحماية الاقليات (٤) السودان .

وظنت بريطانيا أنها تسكت المصريين بهذا التصريح .

ولكن المصريين الذين خبروا السياسة البريطانية يدركون أنه لا يتحقق الاستقلال التام لمصر والسودان الذى ينشدونه ما بقى على أرض مصر جندى بريطانى واحد

عودة سعد : ثم فكت بريطانيا اعتقال سعد وأصحابه فقابلتهم البلاد بمثل المقابلة الاولى التى دلت على شدة تعلق الامة به وتمسكها بالمطالبه باستقلالها التام .

الباب الخامس

المملكة المصرية

اعلان الاستقلال : بصدور تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ انتهت الحماية والسلطنة المصرية . فأعلن جلالة الملك فؤاد الاول للملأ في ١٥ مارس سنة ١٩٢٢ أن مصر دولة مستقلة متمتعة بالسيادة . وأبلغت الدول جميعها بذلك فاعترفت بالمملكة المصرية . وأخذت مصر تبعث الى الدول بالممثلين السياسيين (الوزراء المفوضين والقناصل) مظهر سيادتها الخارجية

الدستور : أراد جلالة الملك أن ينسج على منوال والده وجده في إشراك الامة فى الحكم فأصدر أمره العالى بوضع دستور يكفل للامة الحياة الحرة والاشتراك الفعلى فى ادارة شئون البلاد

صدر الدستور المصرى فى ١٩ ابريل سنة ١٩٢٣ . ودل بما قرره من أن جميع السلطات مصدرها الامة على تلك

الرغبة الاكيدة في تحقيق اشتراك الامة فى وضع قوانينها والاشراف على تنفيذها

نظم الدستور السلطة التشريعية فجعلها بيد برلمان من مجلسين مجلس شيوخ ومجلس نواب

الحياة النيابية : جرت الانتخابات فى سنة ١٩٢٤ فكانت الإغلبية الساحقة للسعديين ولذلك تألفت الوزارة برئاسة زعيم الاغلبية سعد باشا فكانت وزارة الشعب أول وزارة دستورية

سارت حكومة الشعب مؤيدة بثقة البرلمان فى وضع سياسة الاصلاح الداخلى وتأسيس نهضة عامة وبشرت الاحوال بمستقبل زاهر

قتل السردار : ولكن البلاد رزئت بحادثة قتل السردار وحاكم السودان السيرلى ستاك باشا في نوفمبر سنة ١٩٢٤ . مما جعل بريطانيا تفرض على مصر تعويضا قدره نصف مليون من الجنيهات . فدفعته مصر ولكن بريطانيا طلبت أيضاً سحب الجيش المصرى من السودان فلم تقبل وزارة سعد

باشا واستقالات . وأعقبتها وزارة زيور باشا التي وافقت على هذا الطلب وانسحب الجيش تاركا السودان حياة مصر

تعطيل الحياة النيابية وعودتها : ثم تعطل البرلمان ردحا من الزمن فهبت الاحزاب متحدة والهيئات النيابية تطالب باعادة الحياة النيابية والمحافظة على الدستور ولما حالت الوزارة دون إعادة الحياة النيابية عقد البرلمان فى فندق الكونتنتال اجتماعه المشهور فاضطرت الحكومة ازاء تصميم الشعب أن تعيد الانتخابات في سنة ١٩٢٦ وعاد البرلمان الى الانعقاد في دوراته العادية وانتخب سعد باشا رئيسا لمجلس النواب

وفاة سعد باشا : وفي أغسطس سنة ١٩٢٧ أصيبت مصر في قلبها الخفاق بوفاة زعيمها المغفور له سعد باشا فحزنت عليه البلاد حزنا شديدا وخرجت الامة تشيعه إلى مقره الاخير نخلفه فى زعامة الوفد ورئاسة مجلس النواب أحد أبناء مصر البررة ممن أشربوا حماسة مصطفى وتضحية فريد وروح سعد وهو مصطفى النحاس باشا

الاصلاحات الداخلية : قامت الحكومة في ظل الحياة

النيابية وتحقيقا لرغبات البرلمان بتأسيس نهضة عامة فى الرى والزراعة والتعليم وغيرها من أسباب العمران والتقدم

فحصت الحكومة جملة مشروعات عامة للرى ووضعت الحجر الاساسى لقناطر نجع حمادى سنة ١٩٢٨ . وما زالت تفحص مشروع تعلية خزان اسوان تعلية ثانية أو عمل خزان جبل الاولياء على النيل الابيض بالسودان . كما انها انفذت بعض المشروعات الفرعية من حفر ترع ومصارف وبناء قناطر

وأصدرت وزارة الزراعة قانون الثاث وقانون التعاون. ومازالت سائرة فى سياسة الانشاء والتجديد

وقامت وزارة المعارف باصلاحات واسعة النطاق في التعليم فنظمت بعثات فى العلوم والفنون الى اوروبا . واكثرت من المدارس على اختلاف درجاتها . وعنيت بتعميم التعليم الالزامى تنفيذا لما نص عليه الدستور . وتأسست الجامعة المصرية سنة ٩٢٥ ووضع حجر بنائها الاساسى سنة ١٩٢٨ .

المفاوضات والموقف السياسي

مفاوضة سعد باشا : سافر سعد باشا الى انجلترا في عهد

وزارته سنة ١٩٢٤ وفاوض رئيس الحكومة البريطانية اذذاك (المستر ماكدونالد) رئيس حزب العمال للوصول الى اتفاق بشأن التحفظات ولكنه لم يجد ما يدل على أن بريطانيا تريد التسليم بحقوق مصر فقطع المفاوضات

مفاوضة ثروت باشا . وأخيراً جرت مفاوضات بين ثروت باشا ووزير الخارجية البريطانية المستر تشمبرلين (سنة ١٩٢٧ و ١٩٢٨) فأسفرت عن أن بريطانيا قدمت لمصر مشروع معاهدة تقيد مصر بأغلال حديدية فرفضتها الحكومة والامة واستقالت وزارة ثروت باشا وخلفتها وزارة برئاسة النحاس باشا خليفة سعد

أزمة ابريل سنة ١٩٢٨ : أرادت بريطانيا أن تفرض المعاهدة على مصر فرضا وترغمها على توقيعها بأن أرسلت مذكرة فى ٤ مارس تقول فيها إنها تنظر بعين الارتياب الى بعض مشروعات القوانين الجارى نظرها فى البرلمان وانه ما دامت مصر قد رفضت المعاهدة فهى تحفظ لنفسها الحق فى منع كل ما من شأنه المساس بحقوق الاجانب

فكان لابد وأن تقوم الوزارة النحاسية بما يمليه عليها واجبها الوطني والمحافظة على حقوق مصر فأجابت بريطانيا بمذكرتها الشهيرة في ٢٩ مارس التي أبانت فيها أحقية مصر في اصدار قوانينها دون أى تدخل أجنبي بصفتها دولة مستقلة خصوصاً وأن الاجانب متمتعون بالأمن والطمأنينة في ظل حكومة دستورية عادلة وبين شعب هادىء أمين

لكن بريطانيا التي لا تريد إلا أن تنكب بمصر بعثت بمذكرة في ٤ ابريل تبين فيها وجهة نظرها مرتكنة على تصريح ٢٨ فبراير وما تزعمه من أنها أخذت على نفسها حماية الاجانب . وانتهزت فرصة قانون الاجتماعات في دوره الاخير بمجلس الشيوخ وتحدث الوزارة مدعية أن هذا القانون يغل يد البوليس عن قمع المظاهرات وأن في ذلك الخطر على الاجانب

وبالرغم مما أفاض به رئيس الحكومة من البراهين على أنه ليس في القانون أى خطر . فان بريطانيا سلمت للحكومة في مساء ٢٩ ابريل انذار تطلب به أن تعطي الحكومة تأكيداً

كتابيا بأنه لن يستمر في نظر مشروع قانون الاجتماعات وأعطت مهلة لغاية مساء ٢ مايو

وحينئذ اشتدت الازمة وتحرجت الحالة وأحاطت ظروف مختلفة بالوزارة . ثم وفقت الى حل مؤقت بأن طلبت من مجلس الشيوخ تأجيل نظر المشروع إلى الدورة القادمة للتمكن من تبديد الغيوم التي أظلمت الجو السياسي فوافقها المجلس

ثم أجابت على الانذار برد دحضت به مزاعم بريطانيا واحتفظت بحقوق البلاد . فعادت بريطانيا ترد على الوزارة في ٢ مايو بتمسكها بوجهة نظرها

وقد كان في تصرف الوزارة تسكين مؤقت للزوبعة . فالازمة لم تحل نهائيا . ومازال الجو يحمل من العناصر مايجعله عرضة لان تعصف الزوبعة ثانيا

خاتمة : ان مصر لتستمد القوة من حقها . ولها من عطف مليك دستوري ساهر على مصلحة شعبه المخلص الوفي . ومن وطنية الشباب الناهض ومن تضحية نوابها واتحاد أحزابها أكبر معين على بلوغ أمانيها والوصول الى الاستقلال التام .

فهرس

